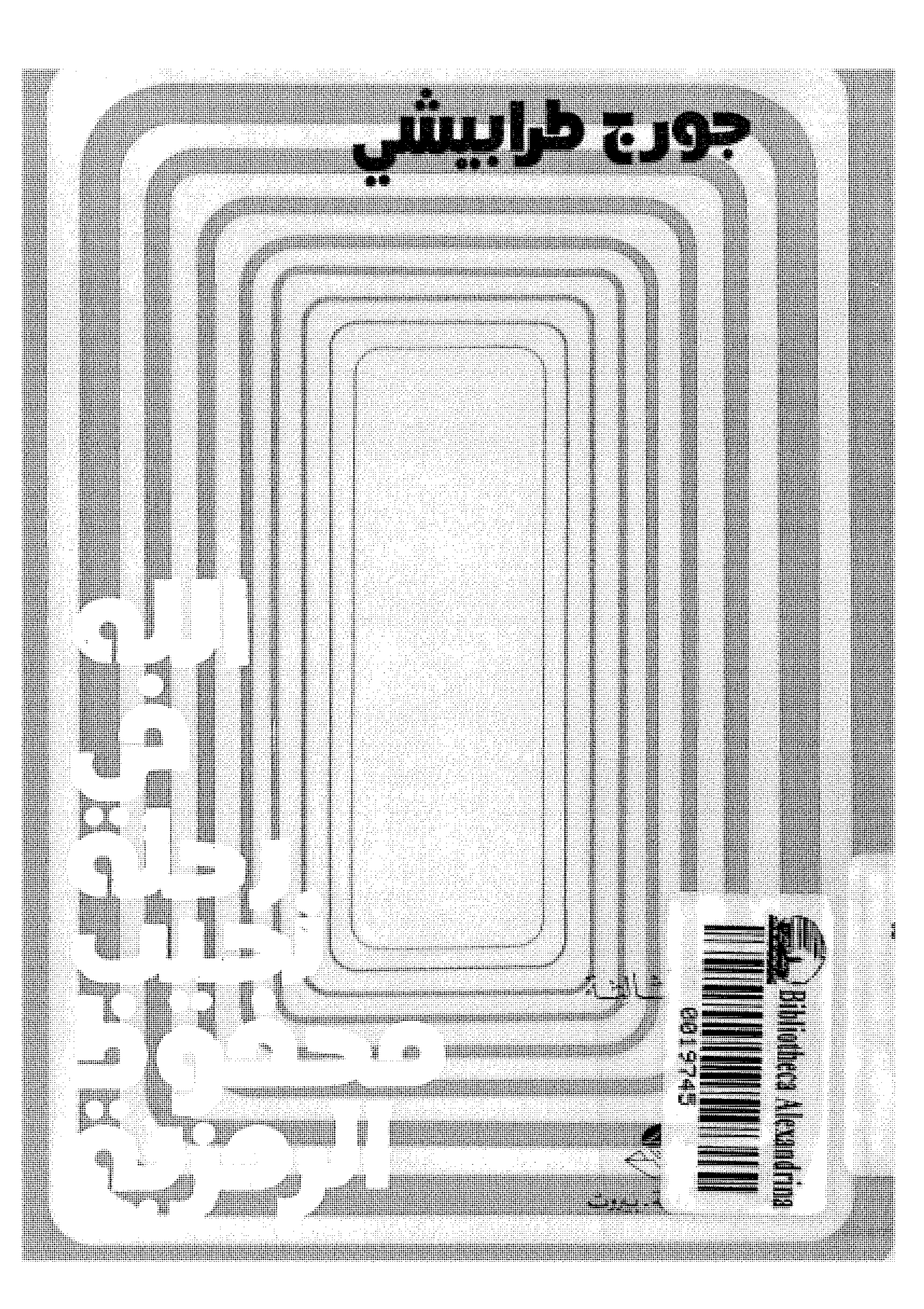

جورج طرابيشي
الله في رحلة نجيب محفوظ الرمزية

بيروت ـ لبنان
ص .ب ١١٨٣٣١
تلفون : ٣١٤٦٥٩
٣٠٩٤٧٠

الطبعة الاولى
آذار (مارس) ١٩٧٣
الطبعة الثانية
نيسان (ابريل) ١٩٧٨
الطبعة الثالثة
تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٨

١٠٩٥ / ٣٠٠٠

جورج طرابيشي

الله في رحلة نجيب محفوظ الرمزية

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

دراسات اخرى في النقد الادبي

صدرت للمؤلف عن دار الطليعة

لعبة الحلم والواقع : دراسة في ادب توفيق الحكيم	١٩٧٢
شرق وغرب ، رجولة وانوثة	١٩٧٧
الادب من الداخل (يصدر قريبا)	١٩٧٨

تقديم الطبعة الثانية

هذه الطبعة الثانية تأتي طبق الاصل عن الاولى ، خلا الفصل الاخير منها الذي أدخلت عليه تعديلات جذرية . وفي الواقع ، كنت أشعر بأن تحليلي في الطبعة الاولى لقصة **حكاية بلا بداية ولا نهاية** كان في مواضع كثيرة أقرب الى التلخيص منه الى «اعادة القراءة» التي هي منهج هذا الكتاب . وقد كنت أشعر ان في القصة المذكورة «أقفالا» عدة لم أتمكن وقتئذ من العثور على المفاتيح الملائمة لها . وكنت حيثما استعصى عليّ قفل أكتفي بمجرد التلخيص . وكل أملي أن اكون في هذه الطبعة الجديدة قد تداركت ذلك العيب الذي هو – في النقد الادبي – كبير .

هذا اعتراف أسجله على نفسي وأنا أعلم ـ ويعلم معـــي القارىء ـ ان من أصعب الامور على الناقد ان يمارس النقـــد الذاتي .

ج . ط

قراءة في « اولاد حارتنا » :
نجيب محفوظ يعيد كتابة تاريخ البشرية

المحاولة التي اخذها نجيب محفوظ على عاتقه في **اولاد حارتنا** محاولة جبارة بلا أدنى ريب . وبغض النظر عن مدى ما حالفه من توفيق فيها ، فسنقول ان ما اراده محفوظ في **اولاد حارتنا** هو ان يعيد كتابة تاريخ البشرية منذ ان وجد في الكون الانسان الاول ، وهذا لا يعني بالطبع أن محفوظ استحال الى مجرد مؤرخ ، فهو يظل في **اولاد حارتنا** كما في الكثير من اعماله الاخرى روائيا مؤرخا . والفارق بين المؤرخ والروائي المؤرخ كبير . ولا يكمن هذا الفارق كما قد يخيل لبعضنا في ان المؤرخ يعرض الاحداث من غير ان تكون له وجهة نظر ، في حين ان الروائي لا يهمه من عرض الاحداث غير توكيد وجهة نظر معينة . فمثل هذا المؤرخ الذي ليس له من وجهة نظر لا وجود له . وكل ما هنالك أن العالم الذي يقدمه لنا المؤرخ هو عالم

موضوعي ، تتحدد موضوعيته بمدى رغبة التاريخ في أن يكون علما . في حين ان العالم الذي يقدمه لنا الروائي هو عالـــــم ذاتي ، وذلك بمقدار طموح الرواية ، حتى ولو كانت مادتهـــا تاريخية ، الى ان تكون فنا . ومن هنا ، وبقدر ما يحرص المؤرخ على عمومية العلاقات التي يقيمها بين الاحداث والظواهـــــر والشخصيات التاريخية ، يحرص الروائي على ان تكون هـــذه العلاقات شخصية وخاصة . والسيطرة على المادة التاريخية في كلا المنظورين تظل المقياس الرئيسي لنجاح المشروع ، التاريخي والروائي على حد سواء ، وان كان من المرجح ان يلاقي الروائي من العنت اكثر مما يلاقي المؤرخ ، نظرا الى ان المادة التاريخية هي بطبيعتها اقرب واصلح للتناول الموضوعي .

وقبل ان نتحدث عن مدى توفيق نجيب محفوظ فـــــي السيطرة على مادته التاريخية ، يجدر بنا ان نتعرف هذه المادة وان نعرّفها .

قلنا ان محفوظ اراد ان يعيد كتابة تاريخ الانسانية منذ ان كان الانسان الاول . وما الانسان الاول الا آدم الذي اليه جميعا ننتمي ، في نظر التفسير الديني للتاريخ . ولكن هل من الممكن ان نتحدث عن آدم من غير ان نتحدث عن الله وعن الارض وعن ملائكة السماء وابليس وعن الحلم المستحيـــل في استعـــــادة الفردوس ؟ ولكن كيف يمكن ان يكون الله والملائكة وابليس وآدم شخصيات في رواية؟ اي كيف يمكن الحديث عنهم من غير انتهاك للقدسيات ؟

لقد وجد نجيب محفوظ الحل في تلك **الحـــارة** الواقعية ـــ الاسطورية ، الحارة الحقيقة ـــ الرمز ، المحدودة واللامحدودة في آن واحد زمانيا ومكانيا . حارة مثلها مثل جميـــــع حارات القاهرة في اواخر القرن التاسع عشر ، مكتظـــــة بالسكان ، وسكانها يسعون الى الرزق بكل السبل التي يمكن ان تخطر على

بال : فتوات ، عاهرات ، حشاشون ، قتلة ، حواة ، باعة خضار ، رعاة ، نجارون ، أسطوات ، حكواتية ، نظّار ، خدم ، بساتنة ، باعة فول وطعمية ، اصحاب مقاهي ، مؤجرون ومستأجرون . والحارة معروفة باسم مؤسسها ، الجبلاوي ، الذي تحدى الوحشة وقطاع الطرق وشاد بيتا كبيرا في خلاء من صحراء المقطم . وحول هذا البيت الكبير امتدت الحارة وعمرت ، وفيها تكاثرت ذرية الجبلاوي وبنت وازدهرت ، وفيها ايضا ذلت وانقسمت واضطهد أفرادها بعضهم بعضا .

وحارة الجبلاوي مع ذلك ليست كسائر الحارات . ولئن كان ابناؤها انفسهم يقولون انه اذا كان الجبلاوي أصلها فانها هي اصل مصر ام الدنيا ، فنحن بدورنا لا يخالجنا شك في ان هذه الحارة ليست بحارة ، وفي انها اكثر من حارة . حارة هي ام الحارات ، كما ان حواء هي ام البشر . حارة وجدت من العدم ، في الخلاء ، تماما كما وجدت الارض من العدم ، في الخلاء . حارة أوجدها ذلك الجد الاكبر ، الجبلاوي ، تماما كما أوجد الله الارض . وكما ان البشر لا هم لهم ولا شاغل منذ سقطة آدم الا ان يعودوا الى الفردوس الذي طردوا منه ، كذلك فان اولاد حارة الجبلاوي لا هم لهم ولا شاغل الا ان يرضى عنهم الجبلاوي فيدعوهم الى الاقامة في **البيت الكبير** الذي وجد قبل ان توجد الحارة والذي يتصورون ان الحياة فيه ستكون فرحا دائما بلا كدح ولا كد في حديقته الغنّاء الوارفة الظلال .

ولكن هل يرضى الجبلاوي ؟ وكيف السبيل الى مرضاته ؟

هل يرضى الجبلاوي ؟ ولكن هل الجبلاوي غاضب ؟ اجل ، انه لغاضب وغضبا شديدا . وقد بلغ به الغضب مبلغا لم يحجم معه عن طرد فلذات كبده من بيته الكبير حيث الراحة والسعادة والغبطة الدائمة ، قاضيا عليهم بذلك ان يعيشوا في الهم والشقاء والدمع والدم تحت العراء في الخلاء الواسع حول البيت الكبير .

ولكن لمَ غضب الجبلاوي هذه الغضبة المضرية ؟ القصـــة كلها تتلخص في انه استدعى ذات يوم ابناءه جميعـــا ، ادريس وعباس ورضوان وجليل وادهم ، وقال لهـم ان الاوان قد آن ليتولى احدهم ادارة الوقف بدلا منه . ولم يخالج احد الشك في ان اختياره سيقع على ادريس ، بكر اولاده . ولكنه ، وعلى دهشة من الجميع ، سمى أدهم . وثارت كرامة ادريس : كيف يخضع ، هو صاحب الحق في البكورية وابن المـــرأة الحرة ، لأدهم ابن الجارية السوداء ؟ وتمرد متحديا قرار والده . فما كان من هذا الا ان طرده من البيت ، الى الابد ، مهددا بالهلاك من تسول له نفسه مساعدته على العودة اليه . وفي الخـــلاء عاش ادريس حياة الشقاوة بكل ما في الكلمة من معنى : سكر وعربدة وفحش واعتداء على الناس وعلى أموالهم . وكل ذلك من غير ان يتجرأ احد على التصدي له لانه «ابن الجبلاوي» . اما أدهم فقد تسلم ادارة الوقف مزهوا فرحا ، ولم يكن هناك مـــا ينغص عليه هناءه الا شعوره بأنه مسؤول الى حد ما عن المـــآل الذي صار اليه اخوه ادريس . وذات يوم وقعت أنظاره علـــى جارية جميلة فأحبها وبنى بها وحملت منه . وكان اسمها أميمة. وازداد هناؤه هناء ، وصار يقضي معظم اوقاته في حديقة البيت الكبير ممتعا عينه برؤية الازهار ، مشنفا اذنه بتغريد العصافير، مناجيا أميمة ومياه النهر الرقراقة . ولكن تنعمه هذا لم يـــدم طويلا . فقد جاءه ذات يوم ابن ابيه ، ادريس ، كسير النظرة ، وديع العبارة ، ممزق القلب ، يرجوه ان يغفر له وأن يمحضه مودته من جديد . ولم يكن ادهم ينتظر الا فرصة كهذه ليحرر ضميره من وطأة الشعور بالاثم تجاه اخيه . ولكنه تراجع مـــع ذلك مذعورا حين أبان ادريس عن حاجته . فادريس لا يرجوه ان يصلح ذات البين بينه وبين والدهما لانه يعلم سلفا ان مثـــل هذه المحاولة فاشلة وان والدهما يغفر كل شيء الا ان يهينه احد

بتمرده عليه ، ولكنه يريد بالمقابل ان يطمئن على مستقبله بعد ان خسر ماضيه وحاضره ، فهو سيصبح ابا عما قريب ويريد ان يطمئن الى مصير ذريته . وكل رجائه من اخيه ان يعرف ما اذا كان ابوهما قد حرمه من حقه في الميراث ، ولا طريق الى معرفة ذلك الا بمراجعة حجة الوقف الموجودة في مجلد ضخم في الخلوة المتصلة بمخدع الاب ، تلك الخلوة التي لم يسمح الجبلاوي لاحد قط بالدخول اليها . وبالرغم من كل ارادة أدهم الطيبة ، لم يستطع الا ان يرفض طلب اخيه لان دخول الحجرة يعني عصيان ارادة الاب مثلما يعني الاطلاع على الحجة سرقة سر يحرص الاب على صونه .

ولكن بذرة الشك قد زرعت مع ذلك في قلب أدهم ، وحين أطلع زوجته اميمة على تفاصيل مواجهته مع ادريس شجعته هذه بدورها على انتهاك حرمة الخلوة ، لا للاطمئنان على مصير ذرية ادريس فحسب ، بل ايضا على مصير ذرية أدهم نفسها التي ما تزال في أحشائها جنينا . وتحت ضغط ادريس وأميمة معا أقدم أدهم على الخطوة النكراء . فدخل الخلوة سرا واقترب من المجلد الكبير ليطالع ما فيه على ضوء الشمعة . ولكن ما كاد ناظراه يفكان حروف الكلمة الاولى حتى فوجيء بالجبلاوي يسد باب الخلوة بجسمه الكبير . وكانت لحظة رعب عظيمة ، لم يفق منها أدهم الا على صوت والده يطرده وزوجته من البيت الكبير .

حسرة وندم وبكاء. ولكن ارادة الجبلاوي قضاء لا راد له . وعرف طريدا الفردوس نفس المصير الذي عرفه من قبلهما ادريس . وكان اول ما استقبلهما في الخلاء المحيط بالبيت الكبير ضحكة تشفٍّ وانتقام من ادريس . ادريس الذي تظاهر بالمسكنة والتوبة حتى يقود أدهم الى التهلكة . ولقد قاده اليها. ادريس الذي لم يتبدل ولن يتبدل : الشر مجسدا . وسوف يحاول ادهم هو الآخر الا يتبدل : لقد كانت زلته عرضا عارضا

في حياته ولن يكون له من هم الا ان يحظى من جديد برضى والده فيعود الى البيت الكبير حيث تمر الساعات كالاحلام السعيدة في الحديقة الغنّاء .

وابتنى أدهم له ولزوجته كوخا وضيعا وراح يكسب قوته وقوتها من بيعه الخيار على عربة يد ، ترافقه اينما اتجه ضحكات ادريس المتشفية . وفي الهم والالم ايضا وضعت له أميمة توأمين : قدري وهمام . ونشأ الطفلان على حلم والديهما بالرجوع الى البيت الكبير . وحين شبا عن الطوق ، امتهنا الرعي رزقا لهما . وكان همام شبيها في دماثة خلقه بوالده ، اما قدري فكان أشبه بعمه ادريس ، وليس من قبيل الصدفة ان يكون قلبه قد تولع بهند ابنة عمه .

كان قد مر عشرون حولا على طرد أدهم وأميمة من البيت الكبير حين جاء رسول من الجبلاوي يطلب الى همام ان يذهب الى مقابلته . وعرض الجبلاوي على همام ، كما هو متوقع ، ان يلتحق بالبيت الكبير مكافأة له على حسن اخلاقه. وأكل الحسد والغيرة قلب قدري ، فما كان منه الا ان أقدم على قتل اخيه همام . وعرف أدهم الما لم يعرف مثله حتى عندما طرد من البيت الكبير ، الم الاب المفجوع بابنه . وشاخ في ساعة واحدة ما لا يشيخه الانسان في عشرين عاما . وسقط طريح الفراش وداهمته اولى سكرات الموت . وفيما هو على هذه الحال فتح باب الكوخ واطل منه الجبلاوي بطلعته المهيبة وقال له : لقد تألمت بما فيه الكفاية ولقد غفرت لك وسوف يكون الوقف لذريتك .

وودع الحياة أدهم فأميمة فادريس . وعاد قدري بعد غيبة طويلة ومعه هند ومعهما اطفال . وخالطوا غيرهم وتكاثروا . وانتشر العمران بفضل أموال الوقف وارتسمت في صفحة الوجود معالم حارة الجبلاوي ، الحارة التي هي امتداد لصحراء

المقطم ، حارة ككل الحارات ولا كغيرها من الحارات في آن واحد .

تلكم هي قصة ظهور حارة الجبلاوي الى الوجود ، وبتعبير أدق قصة أدهم مؤسس تلك الحارة . وسوف تكون لابناء ادهم واحفاده قصصهم هي أيضا ، ولسوف يختار نجيب محفوظ لنا منها أربعا : قصص جبل ورفاعة وقاسم وعرفة . وقبل ان ننتقل الى هذه القصص لنتوقف قليلا عند قصة أدهم .

ان أدهم كما رأينا هو الاب الاول لاولاد حارة الجبلاوي جميعا ، مثله مثل آدم بالنسبة الينا نحن بني آدم . ولا مجال للشك : ان أدهم ليس قرين آدم فحسب ، بل هو هو آدم . الاسم متشابه والقصة واحدة والبداية والنهاية واحدة . ادهم ابن الجبلاوي ، والله هو الذي «جبل» آدم من طين ونفخ فيه الروح وسوّاه بشرا . وقد جمع بعد ذلك الملائكة وقال لهم : «اني جاعل في الارض خليفة» . وحين سمى آدم كانت دهشتهم عظيمة ، دهشة ابناء الجبلاوي حين سمى أدهم . وكما تمرد ادريس على ارادة الجبلاوي ، تمرد ابليس على مشيئة الله : «واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين» . ادريس استكبر ان يخضع لابن الجارية هو ابن الحرة ، وابليس استكبر ان يسجد هو الملاك المخلوق من مادة السماء لآدم المجبول من طين الارض · «قال يا ابليس ما لك ألا تكون مع الساجدين ، قال لم اكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون» . وعلى وزن ابليس جاء اسم ادريس، ومثله ايضا كان اول من طرد من **البيت الكبير** ليصبح مضلة الغاوين . اما آدم فقد استقر به المقام في الجنة وعرف الهناء مع حواء : ام البشر . ومن **الأم** هذه اشتق نجيب محفوظ اسم **أميمة** . وكما سوّل ابليس لحواء ان تغري آدم بالشجرة المحرمة لتذوق معه من ثمارها ، كذلك التقى ادريس واميمة على اغراء أدهم بانتهاك حرمة الخلوة للاطلاع على سر الجبلاوي . في كلتا

الحالتين كلنت الرغبة في معرفة ما لا ينبغي أن يعــرف سبب التهلكة والطرد من البيت الكبير .

ومن يوم السقطة بدأ شقاء الانسان على الارض وبدأ معــه الحلم الاكبر في العودة الى الحديقة الوارفة الظلال . وفـــي الهم والدم أنجبت حواء قابيل وهابيل ، كما انجبت أميمـــة قدريا وهماما . ومن التشابه بين الاحرف الاولى بين هـــذه الاسماء استغنى نجيب محفوظ عن كل تشابه آخر . وكما كان هابيل وديعا دمث الاخلاق ، كان همام . وعلـــى عكسهما كان قابيل وقدري . وكما اصطفى الله بمحبته هابيل ووعده بالجنة، اصطفى الجبلاوي هماما ودعاه للاقامة في البيت الكبير . وكما قتل قابيل هابيل غيرة وحسدا على مقامه عند الله ، قتل قدري همامه غيرة وحسدا على مقامه عند الجبلاوي . وكما ان الله لم يغفر لآدم زلته الا يوم ذاق الالم المرير مع مقتل ابنه ، كذلـــك فعل الجبلاوي مع أدهم . وكما نمت البشرية وتكاثرت من نسل آدم ، نمت حارة الجبلاوي وتكاثرت من نسل أدهم . والذريتان كلتاهما حملتا اللعنة الاولى : ابليس لا هم له الا ان يغوي ذرية قابيل ليكون كل البشر قابيلا ، وادريس لا هم له الا ان يغوي ذرية قدري حتى يكون جميع اولاد حارة الجبلاوي أشقيـــاء فتوات مثل قدري . انه الصراع الازلي بين الخير والشر ، ولن تكون قصة البشرية الا قصة هذا الصراع .

وقصة البشرية هي ما يريد نجيب محفـــوظ ان يرويه . قصتها من الانسان الاول حتى الانسان الاخير ، ومن خلال اللحن الاساسي الذي يتكرر فيها جيلا بعد جيل : الصراع بين الخير والشر ، بين آدم وابليس ، بين أدهـم وادريس ، بين الطيبين الوديعين المسالمين مـــن اولاد حارة الجبلاوي وبين الاشرار المشاكسين القتلة من فتوات حارة الجبلاوي . فهل سيستطيع الانسان ان ينقذ نفسه ؟ هل سيتمكن اولاد حارة الجبلاوي من

التحرر من سيطرة الفتوات ومن استرداد حقوقهم في **الوقف الكبير ؟**

ان الحلم سيكون ابدا واحدا مهما تعددت الاجيال وتكاثرت: حلم آدم في الفردوس المفقود ، حلم أدهم في حديقة البيت الكبير . وكما دفع آدم وأدهم ثمن زلتهما همًا وشقاء وكدحا ، سيدفع كل جيل ثمنا مماثلا . والنتيجة مع ذلك لن تكون موثوقة ، فنسل ادريس لا هم له الا ان يسرق الاجيال تضحياتها وآلامها وآمالها . ولسوف يكون هناك دوما من تسول له نفسه بأن يكون استمرارا لنسل ادريس ولروحه، لا لان الشر مستحب في حد ذاته ، بل لانه وسيلة للسيطرة وطريق للامتيازات .

وها هي حارة الجبلاوي ، بعد موت أدهم والرعيل الاول من ذريته ، لقمة سائغة في شدق الاشرار ، يطمع بها الطامعون مع انه لا يكاد يكون فيها ما يستأهل الطمع به . فأطفالها أشباه عراة ، يملأون الجو بصراخهم والارض بقاذوراتهم ، ونساؤها يقشرن البصل ويتبادلن السباب والشتائم . ومعارك باللسان او بالايدي تنشب هنا وهناك . و«الذباب لا يضاهيه في الكثرة الا القمل ، فهو يشارك الآكلين في الاطباق والشاربين في الاكواز ، يلهو في الاعين ويغني في الافواه كأنه صديق الجميع». وبالاضافة الى هذه الشرور والمظالم ، يأتي ارهاب الفتوات ليتوج مآسي الحارة . اذ ما ان يجد الشاب في نفسه جرأة او في عضلاته قوة حتى يندفع الى التحرش بالآمنين والاعتداء على المسالمين ، ويفرض نفسه فتوة يأخذ الاتاوات من العاملين ويعيش ولا عمل له الا الفتونة ، ويضع نفسه في خدمة الافندي ناظر الوقف لتحطيم كل من تسول له نفسه رفع صوت الاحتجاج .

أجل ، لقد وعد الجبلاوي أدهم بأن يكون الوقف لخير ذريته . ولكن الجبلاوي شاخ واعتزل ، وحل محله الناظر . والناظر عد الوقف وقفه وخص نفسه بموارده وأحاط سلطانه

وامتيازاته بحماية فتوات الحارة واشرارها . وازداد عدد ذرية ادهم وازداد بذلك فقرهم وبؤسهم . فكان الواحد يكدّ ويكدح نظير لقيمات ، وكان عليه فوق ذلك ان يقدم الاتاوة للفتوات مهانا لا مشكورا . وكان الفتوة وحده يعيش في بحبوحة ورفاهية ، وفوقه الفتوة الاكبر ، والناظر فوق الجميع . اما الاهالي فتحت الاقدام . ومن حين الى آخر كان احدهم يئن بالشكوى ويصيح باتجاه **البيت الكبير** على غير مسمع من الفتوات :

ــ اين انت يا جبلاوي ؟

بالفعل اين الجبلاوي ؟ لقد اعتزل ضمن أسوار بيته الكبير، فما عاد يراه ولا يسمع عنه احد . ولد كثيرون وماتوا من غير ان يروه قط . وانتاب بعضهم الشك في ان يكون ما يزال على قيد الحياة . فلو كان على قيد الحياة ، فهل يرضيه ان تعاني ذرية ادهم التي هي ذريته ما تعانيه من ظلم واضطهاد ؟ ألم يقل لأدهم ان الوقف سيكون لخير ذريته ، فما باله وكأنه لا يعلم ان ذرية أدهم هي آخر من يستفيد من الوقف ؟

ــ اين انت يا جبلاوي ؟

ولكن الجبلاوي يرى ويسمع وهو غير راض . هذا على الاقل ما يؤكده جبل ، ذلك الفتى من آل حمدان من نسل ادهم، مؤكدا في الوقت نفسه انه رأى الجبلاوي وكلمه وان الجبلاوي قال له ان آل حمدان هم أسرتي ولهم في وقفي حق يجب ان يأخذوه ولهم كرامة يجب ان تصان وحياة يجب ان تكون جميلة وانهم بالقوة يهزمون البغي ويستردون حقهم ويحيون الحياة الطيبة .

والتف آل حمدان حول جبل وتكاتفوا وقاتلوا وهزموا البغي واستردوا حقهم المهضوم . وعاشت حارة الجبلاوي حقبة من الزمن سعيدة . ولكنها لم تطل . فقد عادت البلوى كما كانت وأشد . ذهب فتوات وجاء فتوات . ومضى ناظر وأتى ناظر .

والاحوال لا تزداد الا سوءا . وارتفعت من جديد اصوات من يرزحون تحت النير :

ـ اين انت يا جبلاوي ؟

وتدخل الجبلاوي مره ثانية. وكان رسوله هذه المرة رفاعة. وفعل رفاعة ما فعله من قبله جبل وان بوسائل أخرى ، ورتعت الحارة في بحبوحة من الهناء لبرهة من الزمن . ولكن المأساة تكررت من جديد ، وارتفعت معها اصوات المعذبين :

ـ اين انت يا جبلاوي ؟

وللمرة الثالثة تدخل الجبلاوي وارسل قاسم . وادى قاسم الرسالة كما اداها من قبله جبل ورفاعة . وظنت الحارة انها ودعت الارهاب والشقاء الى الابد . ولكن ما كادت عجلة الايام تدور حتى دارت الاحوال معها من جديد وجاء فتوات جدد وناظر جديد وساموا الناس ضروب العذاب . وارتفعت اصوات المكروبين مرة اخرى :

ـ اين انت يا جبلاوي ؟

ولكن الجبلاوي كان قد أنذرهم : انه لن يرسل بعد قاسم رسولا آخر ، وعليهم ان يحافظوا الى الابد على ما حققه لهم قاسم . ولكن قاسم مات ، وبموته ضاع كل شيء الا ذكراه . ذكرى طيبة ، لكن محزنة . ذكرى الحقوق التي استردت والكرامة التي استعيدت . ولكنها مجرد ذكرى . والفتوات يرتعون ويعيثون فسادا ، والناظر يكدس الذهب فوق الذهب، وأهل الحارة يئنون تحت السياط والنبابيت والارهاب :

ـ اين انت يا جبلاوي ؟

ولكن الجبلاوي فعل كل ما ينبغي عليه ان يفعله . وما الفائدة من ان يكرر ما فعل ؟ ارسل على التوالي جبل ورفاعة وقاسم ، ولكن ذريته لبثت من بعدهم على ما كانت عليه قبلهم. الا فلتتدبر امرها من الان فصاعدا بنفسها ، وليكن لها من ذكرى جبل ورفاعة وقاسم ومن حياتهم ومبادئهم ما يستنهض هممها

ويحرك فيها روح التمرد والتضحية .

جبل ورفاعة وقاسم . اولاد طيبون أخيار من حارة الجبلاوي . آلمهم وحزّ في نفوسهم ما آلت اليه مصائر الحارة وأهلها ، فتسلحوا بالعزم والايمان وبركة الجبلاوي وتصدوا للشر والارهاب وقضوا ، لحين من الزمن ، على سطوة الفتوات والنظار .

جبل ورفاعة وقاسم . رسل الجبلاوي الى ذرية الجبلاوي. والجبلاوي هو الذي شاد **البيت الكبير** في الخلاء وأوجد الحارة وأولاد الحارة . والله ايضا هو الذي جبل آدم وخلق الارض وما عليها من العدم . ويوم عصاه آدم طرده من الجنة ليكفر عن زلته في الارض . وأدى آدم الثمن ألما ودما الى ان فتحت له ابواب السماء من جديد . ولكن ذرية آدم لبثت في الارض وعليها ان تكفر بدورها . وحتى لا تنسد في وجهها ابواب الامل أرسل الله اليها على التوالي انبياءه العظام الثلاثة : موسى وعيسى ومحمدا . جبل ورفاعة وقاسم . ولا يأخذن الشك القارىء : فالمسألة ليست مسألة رموز ولا تشابه ، وانما هي مسألة تطابق ، وجبل ورفاعة وقاسم هم هم موسى وعيسى ومحمد . ولقد تقيد نجيب محفوظ تقيدا دقيقا بالتفاصيل البارزة في حياة الانبياء العظام، وان كانت مصادره التي اعتمدها لذلك أحادية الجانب .

ولكن بقدر ما حالفه التوفيق في التوازي الذى اقامه بين قصة آدم وقصة أدهم خانه التوفيق في التوازي الذي اقامه بين الانبياء الثلاثة من جهة وبين جبل ورفاعة وقاسم من الجهة الثانية . والسبب في ذلك ، على ما نعتقد ، واضح بسيط : فقصة آدم وخلقه وسقطته وطرده وتكفيره هي فعلا قصة ، اي مادة مشتملة في ذاتها على جميع العناصر الدرامية ، ورموزها تشرح نفسها بنفسها من غير حاجة الى التدخل من الخارج .

وبالمقابل فان حياة الانبياء الثلاثة أقرب الى السيرة منها الى القصة ، وهي غير قابلة للانفصال عن المبادىء التي جاؤوا بها . وهذا معناه ان اي محاولة لسرد حياتهم ستبقى محاولة ناقصة بل مشوهة اذا لم تتخذ خلفية لها مجمل العقائد الدينية التي بشروا بها . وهذا ما يتطلب تدخلا مستمرا من الكاتب ليفسر ويشرح ويعلق ويربط . ولا غرو بعد هذا ان يكون نجيب محفوظ قد تحول الى مجرد مؤرخ في سرده حياة جبل ورفاعة وقاسم بعد ان اثبت مقدرته في قصة أدهم على ان يكون روائيا مؤرخا . وليته كان ايضا مجرد مؤرخ ، لانه لو كان كذلك لاستطاع ان يعطي حياة الانبياء الثلاثة أبعادها العميقة الفعلية ، ولما جاءت صور هؤلاء الانبياء صورا مهزوزة مبتورة هي دون الواقع كمالا وامتلاء وعمقا وأكثر تسطيحا واحادية بعد . ولكن نجيب محفوظ ، المحرج امام المادة التاريخية التي اخذ على عاتقه ان يعالجها والمقيد برغبته في تحويل هذه المادة الى مادة درامية ، عجز عن ان يكون مجرد مؤرخ بعد ان عجز عن ان يكون روائيا مؤرخا . ومن هنا كان شعور القارىء بأن نجيب محفوظ لم يستطع ان يكون على مستوى تلك المادة التاريخية ، وبأنها تتجاوزه باستمرار ، وبأنه لم يتمكن من ان يضيف اليها أبعادا جديدة او شخصية .

لنأخذ على سبيل المثال قصة جبل . ان كل ما استطاعه محفوظ هو انه اقتبس من موسى اسمه والمعالم البارزة في حياته كما تقصها التوراة من غير ان يستطيع في الوقت نفسه ان يعطي تلك الشخصية أبعادها النبوية والتاريخية ، ومن غير ان يقدم تفسيرا مرضيا لا من وجهة نظر مادية ولا حتى من وجهة نظر مثالية. وكلما تبقى من موسى بريشة نجيب محفوظ جملة من أحداث ووقائع لا تدع لنا مجالا للشك في أن جبل هو هو موسى ، ولكنها لا تضفي عليه أبعاد أعمق من تلك التي قد نجدها في بطاقة الهوية فيما لو كان لموسى سجل مدني . لقد تقيد

محفوظ على سبيل المثال بالقصة التوراتية عن ولادة موسى ونشأته الاولى . فالهانم ، زوجة الناظر ، قد التقطت جبل ، وهو في طور الرضاعة ، من حفرة مليئة بمياه الامطار ، وربته في كنفها في بحبوحة من العيش . ونحن نذكر جميعا ان موسى عرف مصيرا مشابها ، هو في الاصل مصير جميع الابطال الدينيين القوميين لدى الشعوب المتمدينة البدائية على حد ما يقول لنا فرويد في دراسته المشهورة **موسى والتوحيد** . ومهما يكن موقفنا من القصة التوراتية فاننا لا نستطيع الا ان نلاحظ انها غنية الرموز ، عميقة الدلالات ، بالمقارنة مع الطابع المجاني لصيغة نجيب محفوظ عنها . فقصة نجيب محفوظ عن طفولة جبل الاولى ليس لها ما قبلها و ما بعدها . انها مجرد تفصيل عديم الدلالة وقابل كل القابلية لان يحذف . ومحفوظ لم يأت بذكره الا لتوكيد التشابه بين جبل وموسى . ولكننا اذا عدنا الى القصة التوراتية وجدنا ان طفولة موسى الاولى حاسمة الدلالة لانها هيأته لان يكون ذلك البطل الديني القومي الذي كانه . فلقد هاجر يوسف واخوته ، كما تنبئنا التوراة، الى مصر ، وسيطروا على اهراءاتها وتحكموا بقوت الشعب المصري وهذا ما لا تقوله التوراة بصراحة . وكان من الطبيعي ان يأتي رد فعل المصريين عنيفا قاسيا بعد ان اكتشفوا انهم اصبحوا ، وهم في بلادهم ، أسرى ارادة الغرباء . ومن هنا كان اضطهاد الفراعنة للعبريين ، والامر المشهور الذي اصدره فرعون بقتل جميع مواليد العبريين من الذكور . وحدث ان ولدت امرأة من بيت لاوي (ليفي) ذكرا بهي الطلعة فأشفقت عليه من القتل ، فوضعته في سفط من البردي وخبأته بين الحلفاء على حافة النهر . ونزلت ابنة فرعون الى النهر لتستحم فرأته ورقت له وجاءته بمرضع (هي أم موسى) وربته في كنفها . ولا ريب في ان نجيب محفوظ قد وفق عندما جعل منقذة جبل زوجة الناظر كبديل عن ابنة

فرعون . ولكن السياق الذي اختاره لقصته جعله يغفل اغفالا تاما السبب الذي هجر من اجله جبل الرضيع في «حفرة مليئة بمياه الامطار» . ومن هنا كان شعورنا بمجانية القصة برمتها في **أولاد حارتنا** . فبدون واقعة اضطهاد المصريين للعبرانيين والامر الذي اصدره فرعون بقتل مواليدهم الذكور ، لا يبقى اي معنى لقصة هجران موسى — جبل عند حافة النيل او في حفرة مليئة بمياه الامطار .

وليست المجانية هي العيب الوحيد في الموازاة التي حاول نجيب محفوظ ان يقيمها بين جبل وموسى . وليس التسطيح هو العيب الثاني الوحيد . فهناك ايضا ما نسميه بتباطؤ النفَس الدرامي للرواية او حتى اختناقه . والنفَس الدرامي في اي رواية يتباطأ او يختنق اذا شعر القارىء انه يعرف سلفا الاحداث وتطورها وخاتمتها . والحال ان القارىء لرواية نجيب محفوظ ما يكاد ينتبه الى التطابق في الهوية بين جبل وموسى حتى يصبح قادرا على توقع تطور مجرى الاحداث برمتها . فكما ان موسى رأى مرة رجلا مصريا يضرب عبريا فانتصر لهذا الاخير وقتل المصري وطمره في الرمل ولاذ بالفرار ، كذلك فان جبلا سيشاهد فتوة من الفتوات يضرب شيخا من آل حمدان فيقتل الفتوة ويطمره في التراب ويولي الادبار . وكما ان موسى هرب الى ارض مديان وجلس عند النهر يراقب بنات كاهن مديان وهن يملأن الجرار فلاحظ مضايقة الرعاة لهن فقام اليهم وحامى عنهن واستقى لهن وفي خاتمة المطاف تزوج من احداهن ، كذلك فان جبل سيهرب الى سوق المقطم وسيلحظ فيها ازدحاما حول عين الماء وفتاتين يضايقهما الشبان فيشتبك معهم ويستقي الفتاتين وفي خاتمة المطاف يتزوج احداهما .

ولو اردنا ان نتتبع التوازي المسطح بين قصتي موسى وجبل ، لطال بنا الشوط الى حد الملل . والحق ان اضطرار نجيب محفوظ الى التقيد بالمادة التاريخية — وهي ههنا ثقيلة

باهظة قد ينوء اي روائي بحملها مهما كان عبقريا ــ قد افقده القدرة لا على اضفاء أبعاد جديدة على شخصياته التاريخية فحسب بل حتى على رسمها بأبعادها الفعلية المعروفة . ولعله كان في الامكان ، بالرغم من ذلك ، انقاذ نفس الرواية الدرامي عن طريق استخدام الرموز، لكن الرموز في **اولاد حارتنا** معدومة الوجود ، ومستحيلة الوجود اصلا بالنظر الى التطابق الكامل ووحدة الهوية بين شخصية موسى التاريخية وشخصية جبل الروائية . وفي القسمين التاليين من الرواية ، اي في قصتي رفاعة وقاسم ، لن يكف النفس الدرامي عن التباطؤ والتثاقل الى درجة الانعدام التام ، لان العيوب التي اشرنا الى وجودها في الموازاة المسطحة بين جبل وموسى لن تني تزداد بروزا واستفحالا في قصتي رفاعة وقاسم . واذا ظل القارىء حريصا، بالرغم من ذلك ، على متابعة مطالعة الرواية ، فهذا لسبب لا دخل له لا بالرواية ولا بدراميتها : رغبة القارىء في ان يعرف كيف سيحول نجيب محفوظ المادة التاريخية ، وكيف سيحورها لتتلاءم ومنطق بناء **حارة الجبلاوي** . وبعبارة اخرى ، ان ما سيستأثر باهتمام القارىء ليس «فنية» نجيب محفوظ وانما براعته . والفارق كبير بين الفن والبراعة ، كالفارق بين المسرح ومسرح العرائس . فالخيوط التي تحرك الدمى في مسرح العرائس ظاهرة منظورة ، والتي تحرك الشخصيات في المسرح خفية لامرئية . هناك الدمى دمى فعلا لانها محرومة من الحرية، وهنا الشخصيات شخصيات حية فعلا لانها تتمتع بالحرية ، او على الاقل بوهم الحرية . ونحن نتكلم عن براعة محفوظ اكثر مما نتكلم عن فنه لاننا نشعر ان مهمته في **اولاد حارتنا** لم تكن خلق الشخصيات او اعادة خلقها ، بل تحويرها بحيث تبقى مطابقة لذاتها حتى وان تغيرت اسماؤها وتغير السياق التاريخي ، الزماني والمكاني ، الذي تتحرك فيه . نتكلم عن براعته اكثر مما

نتكلم عن فنه لان همه الاول كان ادخال الجمل من سم الخياط، اي قسر شخصيات تاريخية طمحت الى تغيير مخططات العالم على الدخول في مخطط **حارة الجبلاوي** الضيق والمتعنت .

لقد قلنا في مستهل هذا التحليل ان المحاولة التي اخذها محفوظ على عاتقه محاولة جبارة . وهذا بالفعل أقل ما يمكن ان يوصف به اي مشروع لاعادة كتابة تاريخ البشرية في صورة رواية او ملحمة روائية . واذا كان النجاح قد حالف محفوظ في القسم الاول من **أولاد حارتنا** ، في قصة أدهم ، فانه أبعد ما يكون في الاقسام الثلاثة التالية عن ان يكون قد اعاد كتابة تاريخ البشرية روائيا . والحق ان محفوظ لم يفعل من شيء سوى انه نسخ هذا التاريخ نسخا مع نزر من التحوير ، فألبسه جلابيب اولاد حارة الجبلاوي . والتاريخ اذا ما ألبس الجلباب يبدو ضامرا هزيلا مهما يكن في الاصل عظيما مجيدا .

ولا تستعيد **اولاد حارتنا** شيئا من نفَسها الدرامي الاول الا في القسم الخامس والاخير ، في قصة عرفة . وعرفة هو الآخر نبي ، ولكنه غير مرسل من السماء ولا من قبل الجبلاوي . انه كما يدل على ذلك اسمه ، نبي العصور الحديثة : العلم . وقد سمع عرفة هو الآخر انين المعذبين من اخوته في حارة الجبلاوي، فقطع على نفسه عهدا بأن يخلصهم من سطوة الناظر والفتوات. وحين كان يسمع بعض اولاد الحارة يصيحون : «اين انت يا جبلاوي ؟» ، او شعراءها يتغنون بذكرى جبل ورفاعة وقاسم ، كان يتساءل بينه وبين نفسه : ما جدوى الذكريات ؟ ومتى ننتهي من الحكايات التي لم نفد منها الحارة شيئا ؟ وهل تورثنا غير الحسرات ؟

وكان من حق عرفة ان يتساءل مثل هذه التساؤلات ، لانه يملك ، على حد اعتقاده ، قوة لم يحز على عُشرها جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين . فقد اخترع زجاجة متفجرة تقف أمامها نبابيت الفتوات وخناجرهم عاجزة مشلولة . ثم انه بات يشك

في وجود الجبلاوي اصلا . فهو لا يستطيـــــع ان يتصور ان الجبلاوي على قيد الحياة ، يرى العابثين يعبثون بوقفه وهو لا يحرك ساكنا ! ثم انه لم يسمع قط عن معمر عاش طول ذلك العمر ! وحسما لكل نقاش وتردد ، يقرر عرفة ان يقدم على ما لم يجرؤ احد على الاقدام عليه قط : سيذهب لمقابلة الجبلاوي شخصيا وسيطلع منه على حجة الوقف التي لم يطلع عليها احد قط ، حتى ولا ابنه أدهم .

انها كما نرى جريرة آدم ، وأدهم ، تتكرر . حب المعرفـة القتّال المودي بصاحبه الى التهلكة . ولكن ليس عرفة هـــو الذي سيهلك هذه المرة : فالبشرية قد تجاوزت اخيرا بدائيتها. وبالفعل ، حين يفاجىء خادم الجبلاوي عرفة وهو يهم بالدخول ليلا الى خلوة الجبلاوي المحرمة لا يجد عرفة مناصا من قتلـه ليولي من ثم الادبار . وفي اليوم التالي ضجت الحارة بالنبـــأ الرهيب : لقد مات الجبلاوي لما علم باقتحام بيته وبمقتل خادمه فمات غما من تجرؤ ذريته عليه ! وانتاب الهلع عرفة . والحق انه لم يكن يبغي قتل الجبلاوي . ولكن الجبلاوي مات من تلقاء نفسه لمجرد ان احد ابناء ذريته قد تجرأ علـــى اقتحام بيته . فلكأن محفوظ يريد ان يقول لنا ان العلم لم يقتل الله خلافا لكل ما هو شائع . الجبلاوي مات ولم يقتل . مات من تلقاء نفسه بمجرد ان اخذت عرفة الرغبة في ان يعرف ، وعمر قلبه بالثقة بأنه قادر على ان يعرف . ومتى ما تملكت الانسان الرغبة في إن يعرف والثقة بأنه قادر على ان يعرف ، فان معرفته لن تتوقف عند حدود حتى ولو أدت الى موت الجبلاوي . والجبلاوي هو الذي وضع في خاتمة المطاف حب المعرفة في قلوب ذريته اذ ضرب على **حجة الوقف** نطاقا من السرية . وصحيح ان عرفـــة مسؤول عن موت الجبلاوي بنوع ما ، ولكن الرغبة التي دفعت به الى محاولة المعرفة لم تكن رغبة شريرة ، لم تكن كرغبــــة

ادريس ، وانما كانت رغبة خيّرة ولهدف خيّر : انقاذ اولاد حارته من سطوة الفتوات وارهاب الناظر . ومثل هذه الرغبة لا يمكن للجبلاوي الا ان يباركها حتى ولو أدت الى موته . ولكأن محفوظ يريد ان يقول لنا ان الله ايضا لا يمكن الا ان يبارك العلم ، العلم الهادف الى تحرير البشرية من سطوة الشر والشقاء ، حتى لو اغتر هذا العلم بنفسه وتصور انه قادر على اجتلاء سر مملكة الله . بل ان الله لا يمكن الا ان يبارك العلم حتى لو طمح هذا العلم في ان يستبدل الله بالانسان سيدا اخيرا على هذا الكون .

هذا لا يعني ان العلم غير قابل لان يخدم مصلحة الاشرار على هذه الارض . حسبه ان يتجرد من انسانيته . أفلم يتحول عرفة ذاته الى خدمة الشر ويضع نفسه وعلمه تحت تصرف الناظر قدري ؟ وقدري ، كما هو واضح من اسمه ، رمز القوة . القوة الغاشمة التي تشتري العلم او تسيطر عليه حتى تشدد من إحكام قبضتها على رقاب المعذبين في هذه الارض . وصحيح ان الخوف هو الذي دفع بعرفة الى الاحتماء بالناظر ، ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ ان عرفة لم يلتجىء الى الناظر الا ليدفع عن نفسه تهمة قتل الجبلاوي ، ولكن ها هوذا يكتشف بعد ان وضع علمه ونفسه في خدمة قدري ، القوة المستغلة الغاشمة ، انه قد اصبح فعلا قاتل الجبلاوي ، لان قتلة الجبلاوي الحقيقيين — وما اكثر قتلته — انما هم اولئك الذين يقتلون اولاده ويضطهدون ذريته ويسلبونها عرق جبينها . انهم الفتوات والنظار . ومن يعمل في خدمة هؤلاء يمس قاتلا للجبلاوي مثلهم . وليس من قبيل الصدفة ان تكون عواطف ، زوجة عرفة ، قد هجرته عند التحاقه بخدمة الناظر . فعواطف ، كما يدل على ذلك اسمها ، هي العاطفة الانسانية في الانسان ، وجدانه الذي يميز به الخير من الشر . وعرفة يئن الان تحت وطأة المأساة التي قاد نفسه اليها . فقد اراد ان يحرر بعلمه

اولاد حارته من ارهاب الناظر ، فاذا بعلمه يتحـــول الى سلاح اضافي ورهيب في يد الناظر لتشديد ارهابه واستغلاله لاولاد الحارة . ولهذا لن يكون من هم لعرفة بعد ان اكتشف تناقض وجوده الا ان يهرب من بيت الناظر الذي أمسى ، بالنسبة اليه، بمثابة سجن . ولسوف تترسخ في عقله فكرة الهرب هـــذه وتصبح محور وجوده ومنتهى امله ، ولاسيما بعد ان حلم بــأن خادمة الجبلاوي جاءت لزيارته تنفيذا لوصية الجبلاوي نفسه. والحال ماذا قالت له خادمة الجبلاوي؟ قالت ان الجبلاوي أمرها قبل ان يلفظ الروح ان تذهب الى عرفة وتخبره ان جده مات وهو راض عنه . ولكن كيف يرضى عنه جده وهو قاتله ، او على الاقل المتسبب في موته ؟ ان المرأة ولا شك مخبولة . ولكن ها هي تؤكد ان الجبلاوي ما قتله احد و«ما كان في وسع احد ان يقتله» . وحين رد عليها عرفة بأن قاتله هو من قتل خادمه ، أجابته مبعوثة الجبلاوي بغضب : كذب وافتراء !

الجبلاوي اذن راض عن عرفة بالرغم من كل ما فعل ، لانه لم يفعل ما فعل الا املا في تحرير اهل حارته . ولئن كـــان الجبلاوي قد عمر طويلا ولم يفارق الحياة الا يوم ظهور عرفة ، فليس معنى ذلك انه وعرفة عدوان لدودان لا يجتمعان ولا تجمع بينهما غير خيوط الجريمة . وحينما يؤكـد محفوظ بـــأن الجبلاوي مات من تلقاء نفسه ولم يقتل ، فلهذا التوكيد دلالته الكبيرة ، اذ ليس المهم في نظر محفوظ ان يبقى الجبلاوي او لا يبقى على قيد الحياة ، وانما المهم ان تبقى روحه وفكرته . ان حياة الجبلاوي لا يمكن أن تستمر في عصر عرفة : هذه حقيقة يقبل بها محفوظ ، ولكنه يرى ان عرفـة نفسه هو خليفـــة الجبلاوي والبديل عنه . فعرفة هو «الابن الطيب» للجبلاوي ، ومن واجبه ان «يحل محله» . ولهذا على وجه التحديد مـات الجبلاوي راضيا عن عرفة الذي لم يعد له من هدف في هــذه

الحياة غير ان يرد الحياة الى الجبلاوي .

أهي اذن مفارقة ؟ ربما بدت لبعضهم كذلك . ولكنها ليست في نظر محفوظ بمفارقة . فعرفة عنده من سلالة الانبياء ، من سلالة جبل ورفاعة وقاسم ، ورسالته لا تختلف عن رسالتهم. وقد يتوهم عرفة ، ويتوهم معه الناس ، انه قاتل الجبلاوي ، ولكن روحه في حقيقة الامر هي من روح الجبلاوي ، وبلقائهما واتحادهما يمكن لحارة الجبلاوي ان تعرف اخيرا الخلاص .

وما يريد محفوظ ان يقوله في خاتمة المطاف لا يكاد يحتاج الى بيان : فالعلم في نظره قد يخطىء الدروب والمسالك ، وقد يصبح سندا للقوة الغاشمة ، وقد يتسبب حتى في موت الله، ولكنه لا يمكن مع ذلك ان يكون مبغوضا ولا مكروها عند الله ، لان العلم هو اليوم طريق الخلاص للانسانية ، بل قل نبيها الجديد في عصر نهاية الانبياء . واذا كان العلم مطالبا بشيء ، حتى في نظر الله ، فهو ان يسترد انسانيته ونبله بتحرره من سيطرة القوى الغاشمة . وهذا بالضبط ما سيفعله عرفة عندما يقرر العودة الى زوجته عواطف والهرب معها من سجن الناظر . وصحيح ان عرفة قتل في خاتمة المطاف ، قتله الناظر على وجه التحديد ، ولكن روحه لم تمت لانها لا يمكن ان تقتل مثلها مثل روح الجبلاوي ، وتماما كما ان ارواح جبل ورفاعة وقاسم حية لم تمت ولا يمكن ان تموت . ولقد استطاع عرفة ان ينقذ قبيل مقتله الكراسة التي سجل فيها خلاصة عمله . وهذه الكراسة قد اصبحت ملكا لاولاد حارة الجبلاوي . ومن صفحاتها سيتعلمون ، ومن رموزها سيصنعون السلاح الذي به سيهزمون الناظر المستبد وكل النظار المستبدين . ولن يثنيهم عن عزمهم هذا ارهاب الفتوات مهما اشتد وبغى ، فهم واثقون اليوم ان «لا بد للظلم من آخر ، ولليل من نهار . ولنريَنّ في حارتنا مصرع الطغيان ومشرق النور والعجائب» .

بهذه الكلمات المتفائلة التي تترك باب المستقبل مفتوحا

تنتهي قصة **اولاد حارتنا** . وما قصة **اولاد حارتنا** كما قلنا الا قصة البشرية التي عانت منذ ان كانت من العذاب والاضطهاد ما لا يمكن حصره في صفحات اي سفر مهما كبر وتعــددت مجلداته . وهذه البشرية هي نفسها التي لم تيأس ، كما لـم ييأس آدم من الرجوع الى الجنة . وما كان انبياؤهـا الا رواد صمودها واملها . واذا كان عصر الانبياء قد انتهى اليوم ، الا ان نجيب محفوظ يدعونا الى المثابرة على نفس الصمود والامل . فهناك من جهة اولى ذكرى الانبياء ، ومن الجهة الثانية السلاح الذي صنعته البشرية بنفسها : العلم . والعلم استمرار للنبوة ، وباتحادهما ستدرك الانسانية غاياتها .

هذا ما اراد نجيب محفوظ ان يقوله في **اولاد حارتنا** ، او هذا على الاقل ما نعتقد انه اراد ان يقوله . فهل هي صوفيــة جديدة كما حاول بعض النقاد ان يؤكدوا ؟

لا نعتقد ذلك ، لان نجيب محفوظ مهتم قبــل كل شيء ، وبخلاف المتصوفين جميعا ، بمصير الانسان على هذه الارض لا في اي مكان آخر . واهتمامه بهذا المصير هو الذي حداه الى تفسير الاديان تفسيرا اجتماعيا ان صح التعبير . فجبل ورفاعة وقاسم ومن بعدهم عرفة خاضوا معاركهم القاسية من اجل ان يسترد اولاد حارتهم حقوقهم المهضومة في وقف الجبـلاوي ويضعوا حدا لاضطهاد الفتــوات والنظار واصحاب الامتيازات وكل المستغلين والطغاة . ومثل هذا التفسير الاجتماعي قد لا يحظى بتأييد كل الناس ، تماما كما ان من الناس من لا يقبل بأن يكون عرفة استمرارا لجبل ورفاعة وقاسم . ونجيب محفـوظ نفسه غير متحرر نهائيا من هذه التناقضات : فأجمل قصــص «اولاد حارته» هي بلا ادنى ريب قصة أدهم . والحال ان ادهم لم يكن يفكر بالوقف بقدر ما كان يفكر بالعودة الى **البيت الكبير** والى حديقته الغنّاء . وبالمقابل فان جبل ورفاعة وقاسم وسائر اولاد حارتهم على مر الاجيال لم يضعوا نصب أعينهم الا الوقف

وحق ذرية أدهم في تقاسم ريعه . ولهذا على وجه التحديد كان عرفة استمرارا لمن سبقوه من أولاد الحارة الطيبين . فلكأن الوقف قد انسى اولاد الحارة **البيت الكبير** وحلم ابيهم بالعودة الى مقام الجد . ام تراهم لم ينسوه ، وانما هم يريدون ان تصبح كلمة الجبلاوي لابنه أدهم نافذة المفعول :

ــ سيكون الوقف لذريتك .

وهذا يعني ، اذا صح ، ان الوقف نفسه سيستحيل الى ما يشبه **البيت الكبير** يوم يعود فعلا وصدقا الى ذرية أدهم ، بلا فتوات ولا نظار ولا طغاة .

وليس المهم بعد كل شيء ان يكون **البيت الكبير** ضمن حدود حارة الجبلاوي او خارجها . وانما المهم ان تكون ابوابه مفتوحة للجميع .

هذا على الاقل ما يعتقده نجيب محفوظ ، وهذه هي رؤياه. ونحن لم نحاول الا ان نلم خيوط هذه الرؤيا ونكشفها لنعرضها بالقدر الممكن من الامانة على شاشة ما اصطلح الناس على تسميته بالنقد الادبي . وبالرغم من كل الادعاءات ، فان هذا النقد قد لا يكون مطالبا في بعض الاحيان الا بأن يكون شاشة سالبة لا تريك الا ما يعرض عليها لا اكثر ولا أقل .

الله في رحلة نجيب محفوظ الرمزية

من المفارقات الكبرى في أدبنا الحديث ان «مشكلة اللـــه» تكاد تكون غائبة عنه ، على الرغم ما للدين بوجه عام من اثـــر كبير في حياتنا الاجتماعية .

وليس هذا هو الوجه الوحيد للمفارقة . فعلى مستـــوى التعليل لا على مستوى الملاحظة لا نجد مناصا من ان نعزو الى سطوة الدين بالذات غياب «مشكلة الله» على صعيد الادب في تناولها السلبي والايجابي على حد سواء .

وتجربة نجيب محفوظ في **أولاد حارتنا** ، من هذا المنظور ، بالغة الدلالة . فبالرغم من ان ما قاله نجيب محفوظ في هـــذه الرواية الملحمية لا يتعارض مع الدين وقد يتعارض مع العلم ، وبالرغم من ان ما قاله فيها لا يمكن الا ان يلقى ترحابا لــدى المتدين وقد لا يلقى قبولا لدى العلماني ، وبالرغم اخيرا من ان مسعاه كان التوفيق بين الدين والعلم والتأكيد على وحـــدة هدفهما والوصول الى ما يشبه «علمنة» الدين و«تديين» العلم،

بالرغم من هذا كله قوبلت **أولاد حارتنا** بالرفض والاستنكـــار وضيق عليها الحصار فلم تطبع في كتاب مستقل الا «فـــي المنفى» اذا جاز التعبير .

ولا يصعب علينا بعد هذا ان نتصور ما الدرس الذي امكن لنجيب محفوظ ان يستخلصه من مصير **اولاد حارتنا** .

كان قد كتبها بلغة غير مباشرة ، رمزية ، مزدوجة الدلالات، ولكن الرموز لم تكن على قدر كاف من اللامباشرة والابهـــام للحيلولة دون وقوع ما وقع .

ولم يكن امام نجيب محفوظ غير احد امرين : اما ان يقلـع نهائيا عن معالجة مواضيع مماثلة ، وإما ان يلجأ الى الترميـــز ويشتط في التورية الى حد التجريد بحيث تخفى الحقائق وراء برقع صفيق من الظواهر .

ونظرا الى ان المشكلات التي طرحها في **أولاد حارتنا** والنتائج التي انتهى اليها لم تكن ذات طابع طارىء أو ثانوي ، بل كانت تمثل على العكس مرحلة اساسية ومركزية في مسيرته الضميرية، فقد كان الخيار الوحيد المتاح له المضي قدما الى الامام فـــي استخدام الرمز ، المدرك في التعقيد والتجريد درجة اللغز ، اداة رئيسية للتعبير الفني .

وبديهي اننا لا نزعم ان الضغط الاجتماعـــي هو المسؤول الوحيد عن تطور نجيب محفوظ باتجاه لغة الرمز والتجريد . وليس في مستطاع احد ان ينكر ان وراء ذلك الاختيار عوامل واعتبارات فنية خالصة . ولعل المعالجة الرمزية هي المعالجـة الوحيدة الممكنة لـ «مشكلة الله» في عصرنا الحديث هذا . ولكن ليس للناقد ــ اللهم الا اذا كان دعيا ــ ان يقرر من الخـــارج طبيعة الدوافع التي تحمل كاتبا من الكتاب على ايثار شكل من اشكال التعبير الفني دون سائر الاشكال . وليس من المستبعد في مثال نجيب محفوظ ان يكون عامل الضغط الاجتماعي قـد تضافر مع الاعتبارات الفنية الخالصة في تحديد النقلة المباغتة

باتجاه الرمزية بدءا من رواية **الطريق** ومرورا بـ **الشحاذ** ووصولا الى قصص **حكاية بلا بداية ولا نهاية** التي تطرفت في الرمز الى حد الالغاز وأوقعت من هنا بالذات الضليعين من النقاد ـ فضلا عن غير الضليعين ـ في تأويلات خاطئة .

وهذه الدراسة التي لا تطمح في ان تكون اكثر من « قراءة تفسيرية» لبعض اعمال نجيب محفوظ على ضوء «مشكلة الله» التي باتت مركزية في كتاباته منذ أواخر الخمسينات ، اي منذ نشر **اولاد حارتنا** مسلسلة في **الاهرام** ، لا تزعم بحال من الاحوال انها تستوعب جميع أبعاد تلك المشكلة في أدب نجيب محفوظ ، ولا تجهل ان هذه المشكلة ماثلة بقدر او بآخر في جميع ما كتبه نجيب محفوظ بلا استثناء ـ وقد اربى ما كتبه حتى الان على ٢٦ رواية ومجموعة قصصية (١) ـ ولكنها ستقصر التحليل عن سبق عمد كما يقال في لغة القانون على اعماله الرمزية التي يبرز فيها الطابع المركزي لتلك المشكلة ، بادئة بقصة قصيرة نشرت في مجموعة **دنيا الله** تحت عنوان **زعبلاوي** .

زعبلاوي

ان اول ما يلفت الانتباه في هذه القصة هو التشابه الغريب في الوقع والجرس بين «زعبلاوي» وبين «جبلاوي» **اولاد حارتنا** . ولعل هذا التشابه كاف وحده لاشعارنا بأننا امام قصة ينبغي ان تفسر على صعيد آخر غير صعيد الظواهر والوقائع المباشرة .

---

١ ـ تموز ١٩٧٣ .

القصة تروى بضمير المتكلم . واول جملة يفوه بها الراوية هي : «اقتنعت اخيرا بأن عليّ ان اجد الشيخ زعبلاوي» .

ومن السطور الاولى نعرف ان الشيخ زعبلاوي «ولي صادق من أولياء الله ، وشيال الهموم والمتاعب» . وقد تولدت القناعة لدى الراوية بضرورة العثور عليه حين الم به «الداء الذي لا دواء له عند احد» . وهذا الداء ، الاقرب ما يكون الى داء المتصوفة ، لن نعرف المزيد من التفاصيل عنه الا في قصة **الشحاذ** . اما في قصة **زعبلاوي** القصيرة فانه معطى لا تعليل له ، وهو ، على خطورته وعميق دلالته الرمزية ، لا يعدو ان يكون اكثر من تبرير للقناعة التي استولت على الراوية بضرورة البحث عن **زعبلاوي** والعثور عليه علّه يجد لديه الدواء الشافي.

والراوية لا يملك من اسباب الوصول الى الشيخ زعبلاوي غير خيط واهٍ : «تذكرت ان ابي قال انه عرفه في بيت الشيخ قمر بخان جعفر ، وهو شيخ من رجال الدين المشتغلين بالمحاماة الشرعية» . ولكن ذلك كان منذ عهد بعيد . اما اليوم فان الشيخ قمر لم يعد هو الشيخ قمر . فقد هجر خان جعفر وانتقل الى جاردن سيتي وصار له مكتب محاماة فخم في ميدان الازهار[1]، وبات «يرتدي البدلة العصرية ويدخن السيجار ويجلس جلسة المعتد بنفسه وماله» . وكل هذه دلائل تشير الى انه قد طلق الدين في سبيل الدنيا وقطع كل صلة له بزعبلاوي . وبالفعل ، فقد تلقى السؤال عن زعبلاوي بفتور وقال لسائله عن صلته به:

ــ كان ذلك في الزمان الاول ، وما أكاد أذكره اليوم ...

والحق ان من كان الشيخ قمر بات يأبى الكلام عن زعبلاوي

---

١ ــ سوف نرى ان الشيخ قمر نموذج بدائي لعمر الحمزاوي في «الشحاذ» . فهو الآخر قد هجر الله ليصبح محاميا لامعا في ميدان الازهار.

بغير صيغة الماضي :

ــ أكان وليا حقا ؟

ــ كنا نراه معجزة ...

ــ وأين يمكن ان اجده اليوم ؟

ــ مدى علمي انه كان يقيم بربع البرجاوي بالازهر ..

وهذا الاصرار على استخدام صيغة الماضي لا يترك للسائل من خيار غير ان يغادر مكتب المحامي العصري وهو لا يكاد يسمع للدنيا صوتا من طنين الخجل في أذنيه .

لكنه لم يغادره خاوي الوفاض تماما : فقد علم على الاقل ان الشيخ زعبلاوي كان يقيم بربع البرجاوي بالازهر .

ربع البرجاوي بالازهر ؟ انه رمز مكثف ومباشر للدين ، او على الاقل لذلك الشكل من الدين الذي ابى ان يتطور مع الزمن. فربع البرجاوي قد «تآكل من القدم حتى لم يبق منه الا واجهة اثرية وحوش استعمل رغم الحراسة الاسمية مزبلة» . وقد اتخذ رجل من مدخل الحوش «محلا لبيع الكتب القديمة من دينية وصوفية» .

وبديهي ان الباحث عن زعبلاوي لم يعثر في ربع البرجاوي على طلبته ، لانه لم يعد مكانا صالحا لاقامة الشيخ زعبلاوي منذ ان عفا عليه الزمن (١) . ولهذا فان صيغة الماضي هي الصيغة الوحيدة ايضا التي يستطيع بائع الكتب القديمة ان يتحدث بها عن زعبلاوي :

ــ زعبلاوي ! يا سلام ! والله زمان ! كان يقيم في هذا

---

١ ــ سوف نرى في «حكاية بلا بداية ولا نهاية» بوجه خاص ان نجيب محفوظ داعية عنيد لتحديث الدين .

الربع حقا عندما كان صالحا للاقامة ، وكان يجلس عندي كثيرا فيحدثني عن الايام الخالية ، وأتبرك بنفحاته، ولكن اين زعبلاوي اليوم ؟

ان الزعبلاوي منفي عن عالم اليوم حتى بات الكثيرون من المعاصرين لا يرون فيه غير ذكرى من ذكريات الايام الخالية . وقد يكون هناك من يتحسر على «ايامه الحلوة» ، ولكن العدد الاكبر من ابناء العصر لم يسمع حتى باسمه . ومن سمع منهم به «يسخر منه بلا حيطة» و«ينعته بالدجل» .

بيد ان من ألمّ به «الداء الذي لا دواء له عند احد» لا يستطيع له سلوانا حتى لو سلاه العصر وأنكر ذكراه . وصحيح ان اسمه قديم ، ولكن الآمال التي يبعثها في النفس هي ابدا متجددة .

البحث عنه لن يتوقف اذن ، حتى وان بدت السبل اليه مسدودة جميعا . والحق ان الخيط الواهي يأبى انقطاعا . وما يزال هناك على الاقل شيخ الحارة . وشيخ الحارة لا بد ان يعرف ، على وجه التحديد لانه شيخ حارة ، ووظيفته ان يعرف . والرمز ههنا ايضا لا يخفي نفسه . فمن كانت وظيفته المعرفة ، كان العلم اسمه الحقيقي حتى وان البس جلباب شيخ الحارة . وليست هذه هي المرة الوحيدة التي يرمز فيها نجيب محفوظ الى العلم بشخص شيخ الحارة . فلسوف نرى انه سيكرر هذا الرمز في قصة **حارة العشاق** من مجموعة **حكاية بلا بداية ولا نهاية** . ولكن ماذا يعلم العلم عن زعبلاوي ؟ وهل يملك ان يقطع بيقين او ان يجزم بنفي ؟ الحق انه لو كان يملك ، في المرحلة الراهنة من تطوره على الاقل ، ان يقطع بيقين او ان يجزم بنفي ، لما كان امام البشرية من خيار : اما الايمان لابنائها جميعا واما اللاإيمان . والحال ان البشرية منقسمة بصدد هذا

الموضوع على نفسها انقساما يكاد ان يكون حادا (١) .

العلم اذن لا يملك لا ان ينفي ولا ان يثبت . وكذلك شيخ الحارة . ولهذا على وجه التحديد تبدو معضلة الزعبلاوي وكأنها لا حل لها . قال شيخ الحارة ردا على سؤال سائله :

ــ هو حي لم يمت، ولكن لا مسكن له. وهذا هو الخازوق. ربما صادفته وأنت خارج من هنا على غير ميعاد ، وربما قضيت الايام والشهور بحثا عنه دون جدوى ...

ــ حتى انت لا تستطيع ان تجده !

ــ حتى انا ! انه رجل يحير العقول ، ولكن احمد ربنا على انه ما زال حيا ...

وتوكيد شيخ الحارة هذا بأن الزعبلاوي ما زال حيا هو تأييد وتدعيم لما جاء في **اولاد حارتنا** من ان عرفة ، بخلاف المزاعم والشائعات والصيحة النيتشوية ، لم يقتل الجبلاوي . والقتل على كل حال ، وعلى فرض انه وقع ، اقرار بوجود القتيل . والحق ان معضلة الزعبلاوي تخرج عن نطاق اختصاص شيخ الحارة . فشواغله هي من طبيعة اخرى . صحيح ان العلم بدا في فترةالاندفاع الاول وعهد الشباب وكأنه قد وجد الجواب لكل سؤال ، ولكنه مع تراكم التجارب والخبرات وخمود فورة الشباب ، زاد تواضعا وأشاح عن الاسئلة الميتافيزيقية الكبرى ليحصر كل همه بمشكلات عينية هي ، على جزئيتها وتواضعها النسبي ، في غاية النفع للناس والحضارة . ولعل هذا ما يشير اليه شيخ الحارة حين يقول للباحث عن زعبلاوي :

---

١ ــ انقسام تشهد عليه النكتة التي راجت بعد اقتحام الانسان لعالم الفضاء للمرة الاولى في التاريخ . فقد قيل ان رائد الفضاء السوفياتي بحث في كل مكان من الكون عن الله فلم يجده ، وان رائد الفضاء الاميركي عاين أنى أجال الطرف في الكون دليل وجوده وعظمته .

ـ انا في الواقع لم أره منذ سنوات ، وشغلتني عنه شواغل الدنيا ، وقد أعادني سؤالك عنه الى أجمل عهود الشباب ...

وفي ختام المقابلة يجمل شيخ الحارة الموقف النهائي للعلم حين يعطي الباحث عن زعبلاوي خريطة للكون ويقول له ابحث عنه بنفسك . فما الجدوى من خريطة اذا كان من الواجب ان يتم البحث على مستوى الكون بأسره ؟

لكن اذا كان العلم لا يستطيع كبير شيء للباحث عن زعبلاوي ، فهل تنتفي كل السبل الاخرى الى معرفته والوصول اليه ؟ الواقع ان العلم لا يستغرق جميع انواع المعرفة ، فالفن ايضا نوع من المعرفة ، وان من طبيعة خاصة . والباحث عن زعبلاوي لا بد ان يطرق هذا الباب فيما يطرقه من أبواب . ولقد قيل له ان حسنين الخطاط كان صديقا له . ولقد كان بالفعل صديقا له ، ولكنه ما كان يزوره في مواعيد ثابتة :

ـ زعبلاوي ! يا سبحان الله ! الرجل اللغز ! يقبل عليك حتى يظنوه قريبك ، ويختفي فكأنه ما كان ... في وجهه جمال لا يمكن ان ينسى ... وبفضله صنعت أجمل لوحاتي .

وليس حسنين الخطاط هو وحده الذي يؤكد ان زيارات زعبلاوي تأتي في مواعيد غير ثابتة ، تماما كلحظات الالهام الفني ، بل يؤكد ذلك ايضا الملحن الموسيقي الشيخ جاد :

ـ زارني منذ مدة ، وقد يحضر الان ، وقد لا اراه حتى الموت !

والشيخ جاد يؤكد هو الآخر ان زعبلاوي قد الهمه أجمل ألحانه ، ولكن الالهام لا يأتي عفو الخاطر ، بل لا بد له من كد شديد «عذاب مضن» ، و«هذا العذاب هو من ضمن العلاج» ، ولا مفر من ان يتعذبه كل من اراد زعبلاوي . عذاب السعي ، وعذاب الشك معا ، ولاسيما في العصر الحديث ، العصر الذي

قدم الشك على اليقين ، ورسم علامة استفهام حول كل ما هو قديم قدم زعبلاوي :

ـ هذا الرجل العجيب يتعب كل من يريده . كان امره سهلا في الزمان القديم عندما كان يقيم في مكان معروف ، اليوم الدنيا تغيرت ، وبعد ان كان يتمتع بمكانة لا يحظى بها الحكام بات البوليس يطارده بتهمة الدجل ، فلم يعد الوصول اليه بالشيء اليسير ، ولكن اصبر ، وثق انك ستصل .

ولكن اليس الى الزعبلاوي طريق أقصر وأقل مشقة من طريق الفن وعذابه وشكوكه ونزواته ومواعيد وحيه غير الثابتة، ولاسيما بالنسبة الى من اشتد عليه الداء وأعياه الدواء حتى بات لا يطيق صبرا ؟

ان مثل هذا الطريق يمكن ان يوفره يقين القلب والحدس ، ذلك الشك الاولي والبدائي من المعرفة . ففي ذروة الوجد الصوفي يمكن للانسان ان يعانق المطلق . ولكن ماذا يحدث حين تتبخر النشوة ؟ الا يتبخر معها موضوعها ومطلقها ؟

لقد وجد صاحبنا الباحث عن زعبلاوي نفسه مضطرا الى ان يطرق باب المعرفة البدائي هذا اذ لم ترو ظمأه أشكالها الراقية المتمثلة في العلم والفن . فقد قيل له ان زعبلاوي يتردد في هذه الايام على الحاج ونس الدمنهوري . ولكن الحاج ونس هذا سكير خطير لا يفرغ كأسا حتى يترع اخرى . وهو يأبى أن يفتح فاه بكلمة وأن يتصل بينه وبين مُجالسه كلام الا اذا اخذته نشوة السكر مثله . فبدون ذلك يخلو «المجلس من اللياقة» و«يتعذر فيه التفاهم» .

وغني عن البيان ان الخمرة هنا ، كما عند جميع المتصوفة، رمزية . ولكنها ككل خمرة لا تؤتي مفعولها الا في حال الغيبوبة وانعدام الوعي . ولا يجد صاحبنا الباحث عن زعبلاوي بدآ من التسليم بشروط الحاج ونس ، واعدا اياه بألا يسأله عن صديقه الا بعد أن يعب كأسا أولى وثانية وثالثة ورابعة . ولكنه عقب

الرابعة كان قد اضاع رشاده ونسي حتى ما جاء من اجله . ثم غط في نوم عميق وحلم اثناءه حلما جميــــلا لم يحلم بمثلـه من قبل :

«حلمت بأنني في حديقة لا حدود لها ، تنتشر في جنباتها الاشجار بوفرة سخية فلا ترى السماء الا كالكواكب خلل أغصانها المتعانقة ويكتنفها جو كالغروب او كالغيم . وكنت مستلقيا فوق هضبة من الياسمين المتساقط كالرذاذ ، ورشاش نافورة صاف ينهل على راسي وجبيني دون انقطاع . وكنت في غاية مــــن الارتياح والطرب والهناء ، وجوقة من التغريد والهديل والزقزقة تعزف في أذني ، وثمة توافق عجيب بيني وبين نفسي ، وبيننا وبين الدنيا ، فكل شيء حيث ينبغي ان يكون بلا تنافـــــر او اساءة او شذوذ ، وليس في الدنيا كلها داع واحــــد للكلام او الحركة ، ونشوة طرب يضج بها الكون» .

ولكن الحلم لم يدم الا هنيهة ، راح الوعي بعده يسدد لطماته «كقبضة شرطي» . وأفاق الرجل ، ولكن على مفاجأة مذهلة : ففيما كان يغط في النوم قدم زعبلاوي وجلس الى مائدتهما وهو «يتغزل طيلة الوقت بعقد من الياسمين حول عنقه أهداه اليــه احد المحبين» ، ثم اخذه العطف على النائم فراح يبلل رأســـه بالماء لعله يفيق ، ولكنه انصرف قبل ان يفيق تماما .

ويكاد الرجل ان يجن جنونه . فقد قضى اياما وليالي وهو يبحث عن زعبلاوي . وحين قيض له ان يلتقيه ، التقاه وهو في غيبوبة من امره . وتلكم هي بالضبط مأساة المعرفة الصوفية . فهي لا توصلنا الى ما نشتهيه الا ونحن في غيبة عن انفسنا وعن الوجود .

ويغادر الرجل الحانة وهو يترنح . وعند كل منعطف ينادي «يا زعبلاوي» ، ولكن ما من مجيب ، حتى تجمع عليه غلمـــان السبيل فلاذ بالفرار .

ان قصة **زعبلاوي** هي اذن قصة رحلة معكوسة في مدارج المعرفة . فالبحث عن زعبلاوي قد تم في طريق انحداري . من أعلى أشكال المعرفة الى أدناها ، ومن أحدثها الى أقدمها ، من العلم الى الفن ، ومن الفن الى الحدس الصوفي . ولا يستطيع احد أن يقول ان الخيبة التامة كانت هي ثمرة هذه الرحلة المعكوسة . ولكن لا يستطيع احد ايضا ان يقول ان ثمة ظمأ قد روي او جوعا قد اشبع . كل ما هنالك ان وجود الزعبلاوي قد أمسى في خاتمة الرحلة بحكم المؤكد ، ولكن لم يتأكد الا ليتأكد معه تعذر لقائه والوصول اليه .

«حسبي انني تأكدت من وجود زعبلاوي ، بل ومن عطفه عليّ مما يبشر باستعداده لمداواتي اذا تم اللقاء» . هذه هي كل حصيلة رحلة الباحث عن زعبلاوي . فهو لم يبرأ من دائه . ولكنه بات واثقا من ان هذا الداء قد يشفى في يوم من الايام اذا تم اللقاء . ولكن هل ثمة من امل في ان يتم اللقاء؟ وهل يستحق مثل هذا الامل الواهي ما يتحمله في سبيله من عذاب وشقاء ؟ في لحظات الشك واليأس يحاول الرجل ان يقنع نفسه بصرف النظر نهائيا عن التفكير بزعبلاوي وعن البحث عنه : «كم من متعبين في هذه الحياة لا يعرفونه او يعتبرونه خرافة من الخرافات : فلمَ أعذب النفس به على هذا النحو ؟» . ولكن ما ان تعود آلام الداء فتلح عليه حتى يعود الى التفكير باحتمال اللقاء . وفي لحظة الآلام التي لا تطاق هذه يمسي على اقتناع تام بأن عليه ان يجد زعبلاوي : «نعم عليّ ان اجد زعبلاوي» . وهذه الجملة التي بها تنتهي القصة تلخص اكثف تلخيص حصيلة الرحلة : فالباحث عن زعبلاوي لم يصل اليه بل وصل الى ضرورة البحث عنه . ولكن في اي السبل ؟ وهل بقي طريق لم يسلكه ؟ اذن فما الفائدة من الاصرار على البحث ؟ وهل البحث عن زعبلاوي هو الطريق اليه ؟

اجل ، هل البحث عن زعبلاوي هو الطريق اليه ام ثمة طريق آخر اجدى وانفع واضمن ؟

ان الرجل لم يطرح على نفسه قط هذا السؤال ، لانه مأخوذ في الدوامة . ولكن لا مفر لنا ، نحن الذين بتنا نعلم انه قد يقضي العمر في البحث بلا جدوى ، من ان ننوب عنه في طرح السؤال: هل وهبت لنا الحياة لكي نضيعها في البحث ام وهبت لنا لكي نصنع منها شيئا جديرا بعظمة الهبة ؟ وبدلا من البحث عن الزعبلاوي اما كان خليقا بالرجل ان يعمل شيئا بحياته كي يستحقه ؟

واخيرا اليست نقطة انطلاق الرجل هي التي حكمت على مسعاه بالخيبة الازلية ؟ فلقد اراد من كل جوارحه العثور على زعبلاوي لانه سمع انه «شيال الهموم والمتاعب» . ولكن هل يمكن لزعبلاوي ان يلبي نداء من لا يناديه الا لكي يرفع عن كاهله عبء المسؤوليات التي من اجلها وجد في الحياة ؟ هل يمكن ان يمن باللقاء على من لا يريد لقاءه الا ليتملص من المصير الذي كتب للبشر جميعا ومن الضريبة التي قدر على كل حي ان يؤديها للحياة ؟

ونحن لا نزعم ان قصة **زعبلاوي** تطرح هذه الاسئلة بمثل هذه الحدة وبمثل هذا التركيز . ولكن اذا كان صحيحا ان في الامكان احيانا استنتاج المقدمات من النتائج مثلما تستنتج عادة النتائج من المقدمات ، فان الاسئلة التي طرحناها تجد ما يبررها في النتائج التي انتهى اليها نجيب محفوظ في رواية **الطريق** التي لم تكن قصة **زعبلاوي** الا مقدمة لها وإرهاصا بها . وفي **الطريق** على وجه التحديد صاغ نجيب محفوظ بحدة وتركيز الاسئلة التي لم تطرحها قصة **زعبلاوي** الا بصورة ضمنية ، مضمرة ، غير مباشرة .

الطريــق

هذه الرواية التي صدرت في عام ١٩٦٤ هي بدورها قصة بحث عن زعبلاوي ، ولكن باسم جديد هذه المرة : سيد سيـد الرحيمي . ومن الممكن لنا على الفور ان نتبين ما في هذا الاسم من رمزية : فالله هو السيد ، وهو الرحمن الرحيم ، وهو اخيرا سيد بني الرحم ، اي البشر .

والحق ان رواية **الطريق** قابلة كلها لان تفسر على مستويين: المستوى المباشر ، الواقعي ، والمستوى اللامباشر ، الرمزي . وعلى المستوى الاول لا تعدو ان تكون قصة بحث **عن أب** ، ولكنها على المستوى الثاني قصة بحث عن **الاب** ، اي الله .

فبسيمة عمران غانية الاسكندرية وقوادتها المشهورة قالت لابنها صابر قبل ان تتوفى : لقد كذبت عليك ، قلت لك ان اباك مات قبل مولدك ، ولكنه في الحقيقة حي ، فاستعد للبحث عنه فهو المخرج الوحيد لورطتك ، ولسوف تجد في كنفه الاحترام والكرامة والسلام .

والحق ان صابر كان في ورطة لا يحسد عليها : فقد تركت له امه قبل ان تسجن مالا كثيرا راكمته مـن تجارتها الآثمة ، فبذره بدوره في الفجور والموبقات . وهو فضلا عن ذلك مثال الابن المدلل . لم يتعلم ولم يتقن مهنة من المهن ، وعاش حياته عالة على أمه . وهي التي ارادت له ذلك . ارادت له البطر لانها في حياتها عرفت الشظف . وأرادت له ان يظل بعيدا عـــن أجوائها ، أجواء البرمجية والبلطجية والقوادين ، لانها ارادتــه تعويضا عن كل دنس حياتها . ولكن ما لم تفكر به وما لم يفكر به هو نفسه ان حياة البطر لن تــدوم له الا ما دامت له الأم . والحال ها هي الام تعتقل وتقضي في السجن خمس سنوات ، وتخرج منه جلدا على عظم ، لا تصلح لغير القبر . اما المال فقد تبخر الا النزر اليسير منـــه . ولأن الام لم تتصور وجـــودا

لابنها غير ان يكون عالة على غيره ، ان لم يكن عليها فعلى ابيه ، فان وصيتها الاخيرة له قبل ان تلفظ الروح كانت :

ـ استعد للبحث عنه ... انه سيد ووجيه بكل معنـــى الكلمة ، لا حد لثروته ولا نفوذه ... وأؤكد لك ان المال ليس الا حسنة من حسناته ...

ولأن الابن ذاته لا يتصور لنفسه من وجود غير ان يكون عالة على غيره ، ان لم يكن على امه فعلى ابيه ، فلن تعود له من غاية في الوجود بعد وفاة أمه سوى البحث عن أبيه لكي يشيل عنه «الهموم والمتاعب» .

ولكن من هو هذا الاب ؟

انه اولا وبلا أدنى ريب اب حقيقي . أحب بسيمة قبل ثلاثين عاما وتزوجها ، ولكنها بعد معاشرة عشرة أعوام هربت منه وهي حبلى مع رجل من أعماق الطين ، ولم تعد تدري عنه شيئا . وكل ما تبقى لها منه شهادة الزواج وصورة الزفاف ويقين بأنه ما زال حيا وبأنه صاحب ثروة ونفوذ .

بيد ان الأبعاد الرمزية لهذا الاب تتوضح ايضا من الصفحات الاولى . فاذا ما سأل صابر أمه :

ـ وهل اضيع عمري في البحث عن شيء قبل التأكد من وجوده ؟

كان جوابها الوحيد :

ـ ولكنك لن تتأكد من وجوده الا بالبحث .

واذا ما سألها :

ـ وهل هو يستحق يا ترى كل هذا التعب ؟

كان جوابها ايضا :

ـ بلا ادنى شك يـــا ابني ، فستجد فـــي كنفه الاحترام والكرامة ، وسيحررك من ذل الحاجة الى اي مخلوق... فتظفر آخر الامر بالسلام .

ولئن كان من الطبيعي والواقعي معا ان يشبه الابن أباه ، فان شبه صابر بسيد سيد الرحيمي يأخذ دلالة رمزية لا مراء فيها . فصابر هو «صورة» عن ابيه . ونحن نعلم ان الانسان «صورة» عن الله . ولكن «كما يكون القمر على الورق صورة عن القمر في كبد السماء» .

وهنا ايضا لا بد ان نرسم علامة استفهام حول نقطة انطلاق صابر . فلئن كان الباحث عن زعبلاوي قد ألم به «الداء الذي لا دواء له عند احد» ، فان **الطريق** تخلو من كل أثر للصوفية . فصابر لا يبحث عن ابيه كي يشفى من داء عضال ، ولكن كيما يستمر في حياة التبطر والبطالة والكسل . انه لا يبحث عنه الا ليكون بديلا عن أمه ، تلك التي علمته وعودته ان يكون في وجوده عالة على غيره . والخيار الذي يضعه صابر نصب عينيه هو اما ان يعمل «برمجيا او بلطجيا او قوادا» وإما ان يعثر على ابيه لكي يغنيه عن كل جهد في هذه الحياة . وهو يقر بينه وبين نفسه وأمام الآخرين بأنه لم يشرع بالبحث عنه الا حين أفلس :

ـ ماذا أعددت لمستقبلك ؟

ـ أبحث عن ابي ، وهذا هو مستقبلي .

ـ تبحث عن ابيك ؟

ـ أجل ، انفصلت عنه وانا في المهد ، ولذلك قصة عائلية لا اهمية لذكرها ، ولما أفلست لم اجد بدا من البحث عنه .

ان صابر يبحث عن سيد سيد الرحيمي لان هذا هو الحل الايسر لا الاصعب : «ابوك حل أيسر من غيره» . وهو لا يبحث عنه بدافع من حاجة دينية عميقة ، لانه يعيش اصلا «في عصر ما قبل الدين» ، وانما لكي يكون عالة عليه : «ما دامت بسيمة قد دفنت فلا أمل الا اذا جاء الاب» .

ان علاقته بأبيه هي اذن علاقة نفعية خالصة . علاقة من يريد ان يأخذ دون ان يعطي شيئا ، وحتى دون ان يفعل شيئا

كي يستحق ما يريد ان يأخذه . أن الرحيمي لن يكون بالنسبة اليه ، حتى وان عبده كإله ، اكثر من عجل من الذهب . فاذا ما تناهى الى اذنه قول قائل :

ــ القطن ! كل شيء يتوقف على القطن

تساءل بينه وبين نفسه على الفور : القطن ؟ أهو رحيمي آخر ؟

وفي هذا التساؤل تلخيص وتكثيف وفضح وإدانة لكل العلاقة الصنمية بالله ولكل العلاقة اللاهوتية بالمال .

وهنا بالتحديد يبرز وجه نجيب محفوظ على انه اكثر الروائيين العرب تقدمية في تناوله لمشكلة الله من وجهة نظر فنان يؤمن بالله .

فالله عند نجيب محفوظ ليس ولا ينبغي ان يكون تكأة للانسان . وفي مجتمع كالمجتمع العربي الشرقي الذي تكاد فيه الاتكالية ان ترتفع الى مستوى المبدأ العام ، يأخذ توكيد نجيب محفوظ هذا مدلولا تقدميا عظيما . ان نجيب محفوظ وطيد الايمان بأن الله قد خلق الانسان على صورته . ولكن لا ينبغي تفسير ذلك محض تفسير شكلي . فان يكون الانسان مخلوقا على صورة الله ، فهذا يعني ان فيه قبسا من الله ومن عظمة الله ومن حرية الله ، وهذا يعني انه حر ومسؤول معا في مسلكه وعن مسلكه .

وفي هذه الحال لا يعود من حق الانسان ان ينتظر المعجزة من الله ، بل عليه ان ينتظرها من نفسه . وما معجزة الله الحقيقية في نظر نجيب محفوظ سوى انه اعطى الانسان القدرة على ان يصنع المعجزات !

ومن هنا كان صابر سيد الرحيمي نموذجا سلبيا خالصا لعلاقة الانسان بالله . فصابر ينتظر المعجزة من الله لا من نفسه ، ويتطلع الى ان ينال الكرامة والحرية والسلام عن غير طريق ذاته واعماله: «انت المفلس المطارَد بماضٍ لوث بالدعارة

والجريمة تتطلع بمعجزة الى الكرامة والحرية والسلام» .

ومن هنا ايضا كتب على صابر سيد الرحيمي الا يصل ابدا الى مبتغاه ، فهو لن يعثر لا على ابيه ولا على الله ، ولن يعرف من مصير غير الجريمة العقيمة اللامجدية . وليس هذا بحكم قدر مقدر او حتمية مأساوية ، وانما بكل بساطة لان صابر اساء اختيار «الطريق» الى الله .

و«**الطريق**» من وجهة النظر هذه رواية تقول ما تقوله بالبرهان على العكس . انها في جوهرها رواية «اللاطريق» او «الطريق المضاد» او «الطريق المسدود» او كل ما لا يفضي من الطرق الى الله .

ان من يريد الله فلا بد ان يستحقه : «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم» . ولكن صابر يفعل كل شيء في سبيل الوصول الى ابيه الا ان يعمل كي يستحقه . بحث عنه وبذر ماله وقواه في هذا البحث ولكنه تنكب عن «الطريق» الوحيد الذي كان من الممكن ان يوصله اليه : العمل . ولأن صابر سيد الرحيمي لم يفهم هذه الحقيقة واصر بعناد على ألا يفهمها فقد قضى عمره ومات وهو يتعجب ويتساءل : لماذا لم يلب الاب نداء الابن ؟ بل لماذا لم يبحث بنفسه عنه ؟

«عجيب ان يكون بعيدا هذا البعد كله من تحمل روحه وجسده بين جنبيك !» . هذا ما يردده صابر بينه وبين نفسه بمرارة ويأس ، ولكنه لا يخطر له ببال انه هو الذي اختار ، بسلوكه «الطريق» الذي سلكه ، ان يكون بعيدا عن الاب ، وانه كلما ازداد إيغالا في «طريقه» ازداد بعدا عنه .

ما «الطريق» الذي اختاره صابر للعثور على ابيه ؟ فتش عن اسمه في دليل الهاتف ، سأل عنه مشايخ الحارات ، ثم اكتفى بنشر اعلان صغير مضحك في احدى الصحف داعيا اياه للاتصال به سواء بالمراسلة او بالتلفون . وفيما عدا ذلك عاود

في القاهرة الحياة التي كان يحياها في الاسكندرية في كنف امه : اقام علاقة إثم وزنا مع زوجة صاحب الفندق الذي نزل فيه ، ثم اتفق معها على ان يقتل الزوج المسن للفوز بها وبأمواله معا .

لقد لفتت زوجة صاحب الفندق ، كريمة ، نظره من اللحظة الاولى التي وضع فيها قدمه في الفندق . وبذل جهدا غير قليل في نصب الشباك لها للايقاع بها . وحين اثبتت الفريسة انها لا تقل رغبة عن الصياد في الوقوع في الشباك المنصوبة ، فاقتحمت عليه غرفته لتقضي معه ليلتهما الآثمة الاولى ، قال بينه وبين نفسه : «انه يشعر لاول مرة بأنه يحتمل ان يستغني عن ابيه» .

وليست هذه هي المرة الوحيدة التي أقر بينه وبين نفسه باستعداده للاستغناء عن ابيه . فحين راودته للمرة الاولى فكرة قتل الزوج ، عم خليل ، للاستئثار بماله وبكريمة ، خاطبه في ضميره بهذه الكلمات : «خير ما تفعل يا عم خليل هو ان تموت.. يستوي لدي ان يجيء ابي او إن تذهب أنت» .

ومرة ثالثة يقر وهو تحت سيطرة تيار الوعي : «ليست كريمة الحب وحده ولكنها نسيان سحري لعذاب البحث العقيم عن الاب ويأسه» .

والحقيقة ان كريمة لم تكن الا استمرارا لماضيه ، ماضي الاثم والدعارة والتبطر . ومن هنا فانها ايضا استمرار لبسيمة عمران : «كريمة امتداد حي لأمه فيما تهبه من متعة وجريمة» .

ومأساة صابر هي انه لا يريد عن ماضيه انفصاما ، لانه ماض من المتعة اللامسؤولة . وهذا هو سر تلك النقطة الغامضة التي بقيت بلا تفسير في كتابات من كتب من النقاد عن **الطريق** . فقد قال صابر في نفسه من اللحظة التي وقع فيها نظره على كريمة في فندق القاهرة الرخيص : اذا كانت هذه هي «فتاة الاسكندرية» فهذا معناه انني سأوفق في البحث عن ابي . وما

فتاة الاسكندرية الا امرأة طاردها قبل عشر سنوات في شوارع الاسكندرية وعرف في أحضانها الشهوةالسوداء واللذة المعربدة. ولقد كان بينها وبين كريمة شبه ، ولكنه لا يرتفع الى درجة اليقين . ولكن اذا كانت هي نفسها فان العثور على الاب بات بحكم المؤكد . هذا ما لا يني صابر يردده بينه وبين نفسه ، مؤكدا بذلك اصراره على عدم الانفصال عن ماضيه في سياق البحث عن ابيه .

والحال ان الحقيقة التي يتجاهلها هي ان ماضيه بالذات هو علة انفصاله وتجسيده معا ، وأن انفصاله عن هذا الماضي هو الشرط الضروري لوضع حد للانفصال عن الاب . ومأزق صابر هو انه لا يريد العثور على ابيه الا ليجدد ماضيه . ومن هنا كان ربطه بين كريمة وفتاة الاسكندرية وبين التفاؤل بالعثور على الاب . ومن هنا ايضا كان مقدرا عليه الاخفاق التام المطبق.

وكما تمثل كريمة الطريق المسدود ، طريق المتعة والجريمة، على وجه التحديد لانها امتداد لأمه ولماضيه ، كذلك تمثل إلهام الطريق الذي كان من الممكن ان يكون مفتوحا ، لانها امتداد لأبيه ودعوة للانفصام عن الماضي وللتحول باتجاه مستقبل من العمل والمسؤولية الانسانية . لقد تعرف صابر الى إلهام في نفس الوقت الذي تعرف فيه الى كريمة . وهذه الواقعة وحدها تكفي للبرهان على ان عالم نجيب محفوظ ليس عالم حتمية مأساوية لا يملك فيه الانسان من خيار . فقد سلك صابر طريق كريمة وكان من الممكن ان يسلك طريق إلهام ، تماما كما سلك من قبل طريق بسيمة عمران وكان من الممكن ان يسلك طريق سيد سيد الرحيمي .

إلهام فتاة رشيقة ، نحيلة ، أقرب في براءة وجهها الى طفلة كبيرة ، «طاقة من عبير لطيف» وليست ككريمة نارا تصهر. وكانت تعمل في الصحيفة التي نشر فيها اعلانه . وقد التقط

منها صابر ، اول ما التقاها ، اشعاعا رفعه الى «مستوى غير مألوف في علاقاته مع الناس» . وحاول على عادته المزمنة ان يجردها في خياله من ثيابها ، ولكنه وجد نفسه ، ولاول مرة في حياته ، عاجزا عن ذلك . وكانت هذه اول اشارة مبكرة الى ان إلهام قادرة على ان تحدث تغييرا جوهريا في حياته ، وعلى ان تجسد قطيعته مع ماضيه وحتى مع تكوينه البيولوجي والفيزيائي .

كان في وسع صابر اذن ان يختار . ولقد عانى في البداية من عذاب الاختيار بالرغم من انه حاول ان يهرب من السؤال المزعج : «من تختار اذا خيرت ؟» . في محضر إلهام كانت «ترتفع به مشاعره الى آفاق من السعادة والانس والصفاء ، ولكن رغبته الغشوم في كريمة لا تموت ، تغفو الى حين لكن لا تموت» . وكان يعلم علم اليقين ان «إلهام سماء صافية يجري تحتها الامان وكريمة سماء ملبدة بالغيوم تنذر بالرعد والبرق والمطر ولكنها ايضا سماء الاسكندرية المحبوبة» . والحال انه على استعداد لان يتخلى عن كل شيء ، حتى عن ابيه ، كيلا يتخلى عن حياة الاسكندرية .

وشخصية إلهام لا تتحدد بالتوازي مع شخصية كريمة فحسب ، بل ايضا بالتوازي مع شخصية صابر نفسه . فإلهام تعاني مثله من مشكلة فقدان الاب ، ولكن مع هذا الفارق الاساسي وهو ان اباها هو الذي هجر أمها في حين ان أمه هي التي هجرت أباه . وهذا الفارق عميق الدلالة . فصابر هو المسؤول ، من حيث انه امتداد لأمه ، عما هو فيه من هجران ، اما إلهام فغير مسؤولة . انها كالكثيرين من المعذبين في هذه الارض لم تأت امرا إدّاً ، كي تستحق هجران الاب . أما صابر فقد سعى الى الهجران بنفسه . انها مثال على عقوق الاب بقدر

ما هو مثال على عقوق الابن (١) .

ويستمر التوازي المتنافي بين صابر وإلهام في طريقـــة معالجتهما لمشكلة هجران الاب . فصابر لا يني يردد : «انـــي ابحث عن رجل هو كل شيء في حياتي» ويرفض القيام بأي عمل لانه «لا قيمة لاي عمل يجيء عن غير طريق ابي» . أما إلهام ، فبالرغم من شعورها الحاد بأنها بلا اب ، فقد قر رأيها الاخير على ان «العمل أهم من الاب وأبقى» . واذا ما سألها صابر :

ــ وأبوك الا تفكرين فيه ؟

كان جوابها :

ــ كأنه غير موجود ، وهو الذي اختار ذلك !

ولأن إلهام تؤمن بأن «العمل هو الذي يحل مشكلتنا» (٢) ، ولانها وعت شرطها الانساني وأخذت مسؤوليتـــه على عاتقها ، ولانها ادركت ان خلاص الانسان مما هو فيه من هجران لا يأتي الا عن طريق المشاركة الانسانية الواعية في صياغـــة الحياة ، ولانها تعذبت ودفعت ضريبة وجودها ، فقد اهتز ابوها «مـــن الاعماق» و«استيقظ من جحوده» وعاد اليها من غير ان تكون قد بحثت عنه قط .

وبذلك تكون ، بسلوكها الطريق الذي سلكتـــه ، قد بعثت

---

١ ــ هذه في الحقيقة مشكلة ميتافيزيقية عميقة الجذور . وكثيرا مـــا اكد علماء اللاهوت على مر الازمان ان النعمة الالهية ليست قاسما مشتركا بين الناس . أفلم يرفض الرب في التوراة تقدمة قايين وتقبل تقدمة هابيل ؟ وقد سبق لنجيب محفوظ ان اشار الى هذه المشكلة اشارة جانبية في «اولاد حارتنا» حين ترك بلا جواب هذا السؤال : لماذا خص الجبلاوي ادهم لا ابنه البكـــر ادريس بثقته وبالاشراف على الوقف ؟

٢ ــ كانت قد خطبت مرة قبل ان تتعرف الى صابر ، ولكن حين طالبها خطيبها بالاستقالة من الوظيفة فسخت الخطبة .

الاب وردته الى الحياة . وهذا بعكس صابر الذي سلك الطريق المضاد الذي قضى على الاب الحي بالموت . فصابر الذي لم يتأكد من وجود ابيه ومن انه ما يزال على قيد الحياة الا في اليوم الذي ارتكب فيه جريمة القتل ، اختار نفس اليوم ليعلن ان «الرحيمي» خرافة وأنه لن يبحث عنه من الان فصاعدا الا «في القرافة» .

ولقد كان طريق الخلاص ـ الروحي على الاقل ـ ما يزال مفتوحا امام صابر حتى بعد ان اعتقل وصدر عليه الحكم بالاعدام ، ولكنه أصر بكل عناد ماضيه على ان يظل سادرا في طريقه المسدود الى النهاية . فهو ما يزال بانتظار المعجزة من ابيه لا من ذاته . ولئن كان مطلبه من الرحيمي قبل اعتقاله ان يوفر له الكرامة والحرية والسلام ، فان مطلبه منه الان وهو في السجن ان ييسر له سبيل الهرب . يسأله المحامي :

ـ بالله خبرني عن الامل الذي يراودك اذا جاء ابوك !

فيجيب :

ـ ربما استطاع ان يسهل لي سبيل الهرب .

ان صابر هو النموذج المكتمل لانسان لا يريد ان يأخذ مسؤولية حياته وأعماله على عاتقه ، النموذج الناجز لانسان اختار ان يكون قاصرا وبحاجة الى وصاية في حياته كما في مماته .

وحين لا يعود أمامه غير حبل المشنقة ، يحاول التنصل من كل مسؤولية بإلقائه التبعات جميعا على عاتق الاب الذي لا يسأل عن ابنائه . فلقد علم من محاميه ان أباه ـ وهنا تكتمل صورة الله الرمزية ـ يتجول «بين قارة وأخرى كما يتجول اصبعك بين طرفي شاربك» ، وأنه «لا عمل له الا الحب» وبذر الابناء في القارات الخمس ، وكان تعليقه الوحيد على هذه المعلومات الجديدة :

ـ بينا يلهو هو فوق الكرة انزوي انا في السجن منتظرا

حبل المشنقة ... ولا يخطر له ان يسأل عن ابنائه ؟

ولكن هل الاب مسؤول حقا ؟ الا يتغير «مفهوم الابـــوة» بالذات اذا شمل «كثرة غير عادية» من الابناء ؟ ثم ألم يقـــدم الدليل على انه «حب خالص» حين خلق ابناءه «على مثالـــه» وافترض فيهم ما فيه من براعة وقوة كما يقول المحامي فـــي الصفحات الاخيرة من الرواية ؟

يكفيه انه قد خلقهم على نحو يغنيهم حتى عن الحاجة اليه. هذا اذا شاؤوا ان يستغنوا عنه . ولكن ليس في هذا مـــن إلزام . ونجيب محفوظ لم يكتب **الطريق** ليقول لنا ان مـــن الواجب الاستغناء عن الاب ، بل ليقول ان من الواجب عـــدم الاتكال عليه اتكالا مطلقا تنتفي معه مسؤولية الابناء . ولئن خيل لصابر في آخر جملة ينطق بها انه «لا جدوى من الاعتماد على الغير» ، فان نجيب محفوظ يرد عليه ردا اخيرا بلسان المحامي :

ـ بل هناك جدوى فيما هو معقول .

وهذا التوكيد ، الذي تنتهي به الرواية ، ينطوي ، كما سبق ان قلنا ، على مدلول تقدمي كبير في مجتمع شرقي اخذت فيه الاتكالية ابعادا لا معقولة . ومن هنا كانت **الطريق** عملا نقديـــا اجتماعيا عظيما ، وان تكن المشكلة الميتافيزيقية هي المشكلـــة المركزية فيها . ولسوف يظل نجيب محفوظ بين روائيينا ذاك الذي استطاع ، بربطه بين أنبل القيم المادية والروحية ، ان يعيد المشكلة الميتافيزيقية الى أبعادها العينية بوصفها مشكلة اجتماعية جوهرا وأساسا .

الشحـاذ

ان رواية **الشحاذ** ، الصادرة بعد عام واحد من **الطريق** ، اي في عام ١٩٦٥ ، تروي هي الاخرى وبقدر متفاوت من الرمزية ،

قصة بحث عن «زعبلاوي» ، عن «سيد سيد الرحيمي» ، من خلال طريق مسدود .

وهي تبدأ بما بدأت به قصة **زعبلاوي** : فعمر الحمزاوي ، المحامي اللامع ، البالغ من العمر ٤٥ عاما ، أصيب على حين فجأة بالداء الذي ليس له عند احد دواء . وقد تجلت أعراض هذا الداء في خمود غريب ماتت معه رغبته في العمل ، وفي ضيق بكل ما حوله :

ــ ليس تعبا بالمعنى المألوف ، يخيل الي اني ما زلت قادرا على العمل ولكني لا أرغب فيه ، لم تعد لي رغبة فيه على الاطلاق ، تركته للمحامي المساعد في مكتبي ، وكل القضايا عندي تؤجل منذ شهر ... وكثيرا ما أضيق بالدنيا ، بالناس ، بالاسرة نفسها ، فاقتنعت بأن الحال أخطر من ان اسكت عنها.

وكما هي الحال في كل مرض ، يحلو للمريض ان يتصور ان له «سببا عضويا» ويأمل ان يجد له علاجا «بحبة بعد الاكل او ملعقة قبل النوم» .

ولكن ها هو الطبيب يؤكد لعمر ، بعد فحص دقيق ، ان ليس به شيء على الاطلاق ، لا عضويا ولا نفسيا ، وان كانت هناك مقدمات لمرض «بورجوازي» بحكم طبيعة الحياة التي يحياها عمر : نجاح في العمل وثراء ، وأسرة سعيدة ، وطعام فاخر وخمور جيدة ، وقلة في الحركة والمشي :

ــ الدواء الحقيقي بيدك انت وحدك ...

وبالرغم من ان هذه العبارة التي فاه بها الطبيب لا تعني في مدلولها الواقعي غير الريجيم والرياضة ، فانها ذات أبعاد أعمق من ذلك بكثير في مدلولها الرمزي . ذلك ان المرض لا يكمن في جسم عمر ، بل في روحه .

كان عمر ، قبل ان يصبح محاميا كبيرا ، اشتراكيا متطرفا، ومناضلا ، وشاعرا ، تزوج عن حب من فتاة من غير دينه

متحديا أعتى التقاليد ولكن مع مر الزمن مات فيه المناضل ، ومات معه الشعر ، وكذلك الحب ، وحلت محل ذلك كله حياة مترفة ناجحة مترهلة .

والحال اذا كان الماضي قد مات منذ عشرين سنة ، فـان الاحساس به لم يمت . فعمر يتحسس ماضيه النضالي فـي شخص عثمان خليل ، وماضيه الشعري في شخص مصطفـى المنياوي . ولقد كان كل من عمر وعثمان ومصطفى ، فيما غبر من الايام ، ثلاثيا يأبى انفصاما . تخرجوا من الجامعة في عـام واحد ، واختاروا معا ان يغيروا وجه العالم ، ولكنهم لم يغيروا منه غير انفسهم . فعمر قد اصبح محاميا كبيرا لا اكثر ولا أقل. وعثمان خليل ، الذي ابى ان يتغير ، قابع الان في السجن منذ قرابة العقدين من الزمن ، لان القرعة وقعت عليه لتفجيـر القنبلة في اول عمل ارهابي لهم . اما مصطفى المنياوي ، الذي كان يحلم بأن يكون فنانا ، فقد نبذ الفن في يوم من الايام ، وبعد شيء من العناد ، بقوة مذهلة ، واختار بديلا عنـه «بيع اللب والفشار عن طريق الصحف والاذاعة والتلفزيون» .

ولقد كان كل من عثمان ومصطفى بمثابة الضمير المعـذب لعمر ، وعلى الاقل لحين من الزمن . الاول لانه فـي السجن ، ولكنه استطاع بسبب ذلك على وجه التحديـد ان يتناساه . والثاني لانه استغرق بعض الوقت حتى يهجر الفن وينبذه .

ـ اني لا احب الماضي .

هذا ما قاله عمر للطبيب . لكن ها هوذا الماضي يصر على الانبعاث ، اذ ان عثمان خليل سيخرج عما قريب من السجن بعد ان قضى فيه تمام المدة التي حكم بها عليه . وليس من قبيـل الصدفة ان يكون احساس عمر بمرضه الوهمي قد بدأ مع اقتراب موعد اطلاق سراح عثمان خليل ، فلكأن عثمان خليل هو ضميره الذي يستيقظ بعد طول حبس . ومن هذا المنظور يمكننـا الافتراض بأن عمر الحمزاوي هو الشخصية المضادة لصابر سيد

الرحيمي ، وأن يكن مآلهما واحدا . فصابر لا يحرص على شيء حرصه على ماضيه ، وعمر لا يهرب من شيء هربه من ماضيه. والمحاورة التي تدور بينه وبين مصطفى المنياوي بالغة الدلالة من وجهة النظر هذه :

«قال مصطفى ضاحكا :

ــ اذكر انك كرهتني يوما ما ...

ــ انت كاذب كأكثر اهل صناعتك !

ــ كنت تضيق بي على عهد ايماني الشديد بالفن .

ــ كنت وقتذاك اعاني نزعه من نفسي .

ــ اجل ، كنت تقاتل حبه الكامن فيك وتهجره بقسوة ، وكنت انا في ذلك الوقت وجها من وجوهه جديرا باثارة الشجون .

ــ ولكنني لم اكرهك ، وجدتك فقط ضميرا معذّبا .

ــ ولعلي أرحتك كثيرا عندما قررت نبذ الفن بقوة مذهلة!..

وقد يحاول مصطفى ، الهارب هو الآخر من نفسه ومن ماضيه ، أن يتذرع بـ «اسباب فلسفية» لتبرير نبذه للفن كأن يقول : «قديما كان للفن معنى حتى أزاحه العلم من الطريق فأفقده كل معنى» ، ولكن عمر يقطع عليه طريق هذه التعلة بقسوة من لا يريد ان يكون الهارب الاوحد من المعركة :

ــ انت لم تنبذه بسبب العلم وحده ! وانما عجزت عن ان تحتفظ له بمكانة محترمة على مستوى العلم !

ومصطفى ، المهدد مثله مثل عمر بالغرق في «مستنقع من المواد الدهنية» ، قد يقر في خاتمة المطاف بأنه ارتضى طائعا مختارا مصير المهرج وبائع اللب والفشار بديلا عن مصير الفنان، ولكن اي عزاء لعمر في هذا الاقرار ما دام «الماضي سيخرج قريبا من السجن فيتضاعف عذاب الوجود» ؟

والحق ان وطأة المرض الموهوم تشتد عليه كلما اقترب موعد

خروج «الماضي» من السجن . وفي مرحلة أولى يهرب الى الاسكندرية ليطبق فيها نصيحة الطبيب : الريجيم والرياضة . ويكتب الى مصطفى: «لو رأيتني لدهشت التقدم الذي أحرزته، فقد نقصت ثمانية كيلو ومشيت آلاف الكيلومترات وضحيت بأطنان من اللحوم والبطارخ والزبد والبيض» . ولكن الداء الذي ينخر الروح لا الجسد لا يني هو الآخر يتقدم : «أبشر يا عزيزي بأنني أتقدم نحو شفاء جسماني واضح ولكني أقترب في الوقت نفسه من جنون طريف» .

وتتفجر الازمة بصورة نهائية حين يكتشف ذات يوم ان بثينة ، ابنته ، تنظم هي الاخرى الشعر سرا مثلما كان يفعل في شبابه . ولكنه للوهلة الاولى لم يفهم قصائدها وخيل اليه انها عاشقة : «ولكن البنت عاشقة . وربي انها لعاشقة . البرعمة التي لم تتفتح بعد . من هو ذو الجمال . الذي السحاب انفاسه . والشمس مرآته . الذي تتمايل الاغصان شوقا اليه» .

ويبدأ عملية استجواب شاقة لمعرفة هوية المعشوق . ولكنه يفاجأ حين تصارحه بأنه ليس انسانا من الناس ، ولا حتى ملاكا من الملائكة ، وانما هو «غاية كل شيء» و«سر هذا الوجود» .

كيف لم يفهم مع ان البنت تكرر سيرة الاب ؟ كيف لم يفهم مع انها وجدت في ديوانه بالذات «بدء الطريق» ؟ كيف لم يفهم وهو الذي غنى وعشق قبلها بعشرين عاما سر هذا الوجود ؟

ويسألها :

ــ هذا هو حبيبك ؟

ويأتيه الجواب لاسعا :

ــ كما انه حبيبك !

وبينه وبين نفسه يقر : «كان . لا حبيب الان . القلب لم يعد يفرز الا الضياع . وبين النجوم يترامى الفراغ والظلام . وملايين السنين الضوئية» .

وفي روحه الخامدة التي ماتت فيها كل رغبة وباتت تتقزز

من العمل والاسرة والنجاح ، وحتى من ذاتها ، انبعثت أشواق غامضة الى الكتب التي هجرها منذ عشرين سنة . واجتاحه يقين جارف بأنه لا دواء لدائه الا بتجدد النشوة التي كان بها يفني سر الوجود :

ــ حركة ... او نشوة ... أحيت الكائن الميت دفعة واحدة ... وآمنت ساعتها بأن الحركة او النشوة هي مطلبي، لا العمل ولا الاسرة ولا الثراء ... هي هذه النشوة العجيبة الغامضة ... كأنها النصر الدائم وسط الهزائم المتلاحقة ... وهي التي سحقت الشك والخمول والمرارة ...

وهكذا تبدأ من جديد مسيرة الباحث عن زعبلاوي ومسيرة صابر الباحث عن الاب . وفي الطريق المسدود ذاته . ومع هذا الفارق : فبدلا من الرجوع الى أدلة الهاتف ومشايخ الحارات والاعلان في الصحف سيلجأ عمر الى «طريق» التسول : انه سيكون «شحاذ» النشوة . ومثله مثل صابر سينتظر «المعجزة» من غيره لا من نفسه ، وسيبحث عن النشوة في كل مكان الا في ذاته . وانى له أصلا ان يلقاها في ذاته وذاته فارغة ، او بالاحرى مفرغة ؟ ولكنه لن يكون أقل عنادا وعمى بصيرة من صابر : «سأدق الجدار الاصم في كل موضع حتى يرن صوت أجوف يشي بالكنز المدفون !» ...

وتبدأ رحلة تسول النشوة ، اول ما تبدأ ، في الملاهي الليلية : في أحضان مرغريت المغنية ، ثم في أحضان وردة الراقصة ، وبعد ذلك في أحضان كل امراة يمكن ان يشتريها بماله . وفي اكثر من مرة خيل اليه ان النشوة المنشودة المستعصية قد ذر قرنها وأن باب المدينة المسحورة الذي يطرقه بكل رجاء قد فتح له . مرة مع مرغريت في ليلة مظلمة في خلاء حول الهرم :

«ما أكثف الظلمة حولنا . تكاثفي حتى ينسانا العالم .

وليختف كل شيء عن العين الضجرة . آن للقلب وحـــده ان يرى . ان يرى النشوة كنجم متوهج . وها هي تدب فـــي الاعماق كضياء الفجر . فلعل نفسك اعرضت عن كل شيء ظمأ للحب . حبا في الحب . توقا لنشوة الخلق الاولى . اللائذة بسر أسرار الحياة . التي خرجت من صراع مليون مليون سنة بنبتة باهرة مذهلة» .

ومرة ثانية وفي الخلاء نفسه مع وردة . ومرة ثالثة مـــع اشعار فارس والهند . ولكن هل من جدوى ؟ لقد ود ان «يجد ان خانته النشوة المنشودة بديلا في لذة الجنس السحرية» ، ولكن«نشوة الحب لا تدوم ونشوة الجنس أقصر من ان يكـون لها أثر» .

ومع كل علاقة جديدة ، أطالت ام قصرت ، يعاوده المرض. ولا يملك الا ان يجاهر مصطفى بالحقيقة :

ــ لعل سر شقائي انني أبحث عن معادلة بلا تأهيل علمي...

ــ ولانه لا يوجد وحي في عصرنا فلم يبـــق لامثالك الا التسول !

وبينه وبين نفسه يتابع الاقرار : «التسول ! في الليـــل والنهار . في القراءة المجدبة والشعر العقيـــم . في الصلوات الوثنية في باحات الملاهي الليلية . في تحريك القلب الاصـــم بأشواك المغامرات الجهنمية» .

والمتسول لا يكتمل نموذجيا الا اذا جمع عمى البصر الـــى عمى البصيرة (١) . وحتى يفقد عمر القدرة على الرؤية فلا بد من

---

١ ــ ومثاله الشحاذ الاعمى في رواية «الطريق» . وقد آثرنا الا نشـــير اليه عند تحليلنا لهذه الرواية لان دلالته لا تأخذ ابعادها كاملة الا في روايـــة «الشحاذ» نفسها . فعمى البصر ههنا يصبح رمزا لعمى البصيرة ، كما يصبح الشحاذ الاعمى صلة وصل بين صابر سيد الرحيمي وبين عمر الحمزاوي .

رؤيا باهرة تعميه او تجعله كالاعمى . وهكذا خرج مرة بمفرده ـ بعد ان اصاب النعاس نشوة الجنس ـ الى الطريق الصحراوي باتجاه الخلاء حول الهرم ، ووقف يتأمل قبيل الفجر قبة السماء حيث تتلألأ آلاف النجوم عناقيد واشكالا ووحدانا. واذا باللحظة الالهية التي طال انتظارها تغمره والوجود في عناق النشوة :

«رق الظلام . وانبثت فيه شفافية . وتكوّن خط في بطء شديد ومضى ينضح بلون وضيء عجيب . كسرّ او عبير . ثم توكد فانبعثت دفقات من البهجة والضياء النعسان . وفجأة رقص القلب بفرحة ثملة . واجتاح السرور مخاوفه واحزانه . وشدّ البصر الى أفراح الضياء يكاد ينتزع من محاجره . وشملته سعادة غامرة جنونية آسرة وطرب رقصت له الكائنات في اربعة أركان المعمورة . وكل جارحة رنمت وكل حاسة سكرت واندفنت الشكوك والمخاوف والمتاعب . واظله يقين عجيب ذو ثقل يقطر منه السلام والطمأنينة . وملأته ثقة لا عهد له بها وعدته بتحقيق اي شيء يريد . ولكنه ارتفع فوق اي رغبة وترامت الدنيا تحت قدميه حفنة من تراب . لا شيء . لا أسأل صحة ولا سلاما ولا أمانا ولا جاها ولا عمرا . ولتأت النهاية في هذه اللحظة فهي أمنية الاماني» .

وبالرغم من ان هذه اللحظة لم تدم الا ثوان ، او ما دون الثواني ، فقد كانت كافية لتبهره ولتجعله يعمى نهائيا عن كل ما حوله ولتحمله على اتخاذ قرار لا عودة فيه بهجران كل ما في الوجود سعيا وراء لغز الوجود وانفاس المجهول وهمسات السر.

وهكذا يتم تحول عمر النهائي من منتم الى العالم الى مهاجر عنه . ومع هذا التحول ، بل هذا الامساخ ، تكون قطيعة عمر مع ماضيه قد بلغت الذروة . فقبل عشرين عاما كانت النشوة والشعر والاشتراكية والمشاركة في صياغة الحياة شيئا

واحدا . اما الان فان النشوة هي نشـوة التحلل من كـل ارتباط . نشوة العقم مجسدا . وليس من قبيل الصدفة ، من وجهة النظر هذه ، ان تكون النشوة التي عرفها في خـلاء الصحراء قد اتته في نفس اللحظة التي اتى فيها المخـاض زوجته . وهذه المقابلة بين الولادتين لا تترك مجالا للشك فـي العقم المطلق للطريق الذي اختاره عمر .

وهذه المقابلة تأخذ شكلا اكثر حدة حين يفاجأ عمر بعـد بضعة ايام بعثمان خليل يقتحم عليه مكتبه بعد ان اخلي سبيله: «رجل خارج من السجن الى الدنيا ورجل يتحفز للخروج مـن الدنيا الى عالم مجهول» .

وبديهي ان عثمان خليل ، الذي اختار مصيره «بوعـي كامل» ، يرفض الدخول في لعبة عمر ومرضه الموهوم . فاذا ما قيل له ان عمر يعاني من أزمة حادة «كأنما يبحث عن نفسـه» كان جوابه : «اليس هو الذي أضاعها ؟» . وحين يعلم ان «كتب الغيب حلت محل الاشتراكية في مكتبته» وانه لم يعد له من هم غير البحث عن معنى لوجوده ، يرد بقسوة :

ـ عندما نعي مسؤوليتنا حيال الملايين فاننا لا نجد معنـى للبحث عن معنى ذواتنا !

وعلى لسان عثمان خليل يصوغ نجيب محفوظ أمرّ الهجاء وأعنفه للمتخذين من التصوف «طريقا الى الرب» ومـن القلب أداة لمعرفة سر الحياة والموت :

ـ القلب مضخة تعمل بواسطة الشرايين والاوردة ، ومـن الخرافة ان نتصوره وسيلة الى الحقيقة ... انت تتطلع الـى نشوة ، وربما الى ما يسمى بالحقيقة المطلقة ، ولكنك لا تملـك وسيلة ناجعة للبحث فتلوذ بالقلب كصخرة نجاة اخيرة ، ولكنه مجرد صخرة ، وسوف تتقهقر بك الى ما وراء التاريخ ، وبذلك يضيع عمرك هدرا ، حتى عمري الذي ضاع وراء الاسوار لـم يضع هدرا ، ولكن عمرك انت سيضيع هـدرا ، ولن تبلغ اي.

حقيقة جديرة بهذا الاسم الا بالعقل والعلم والعمل (١) ...

ولكن عمر الذي بات «جثة منسية فوق سطح الارض» ولم يعد بينه وبين عثمان من شيء مشترك الا «تاريخ ميت» يعزي نفسه بأن الآخر لم يشهد مثله «الفجر في الصحراء ، ولم يشعر بالنشوة التي تحقق اليقين بلا حاجة الى دليل ، ولم تطرح الدنيا تحت قدميه حفنة من تراب» .

ولكن اين هي هذه النشوة الان ؟ تعددت رحلاته الليلية وهيماناته الفجرية في خلاء الصحراء ، ولكن النشوة خرساء ، وليس من دليل على انها تكلمت ذات مرة الا «ذاكرة محطمة» .

وبعناد الشحاذ والاعمى ، بعناد ناطح الصخرة ، يوهم عمر نفسه بأن النشوة تأبى تجددا لانه لم يتحرر بعد من كل ارتباط كامل التحرر ولم يتجرد عن كل شيء مطلق التجرد . اذن فليهجر البيت والاسرة بصورة نهائية كما هجر من قبل المكتب، وليعش «خارج أسوار الزمان والمكان» ، وليصبح أسير «اللاشيء» فلعل «حقيقة كل شيء تكمن في اللاشيء» !

ولكن ما دام الانسان حيا فهل يستطيع من الحياة برءا ؟ وكيف يرحل عن العالم من العالم فيه ؟ وقد يستطيع عمر في يقظته ان يغيب عن كل شيء ، ولكن هل يملك ان يحول دون حضور كل شيء في لا وعيه ؟ وها هي أطياف العالم تطارده في خلوته . مرة طيف ابنته بثينة . ومرة اخرى طيف مصطفى. ومرة ثالثة طيف عثمان . ومرة رابعة طيف الانسان وتاريخ الانسان منذ ان كان الانسان . الانسان في طور صراعه مع

---

١ - ان يكون عثمان خليل ناطقا ههنا بلسان نجيب محفوظ ، فهذه حقيقة يؤكدها تصريح هذا الاخير في مجلة «الهلال» - شباط ١٩٧٠ : «لعل الايمان الوحيد الحاضر في قلبي هو ايماني بالعلم وبالمنهج العلمي» .

حيوانيته . الانسان في طور صراعه مع الانسان . الانسان في طور الحضارة . الانسان في ارقى مراحل تطوره : المفكر . فأنى لمن كان له هذا التاريخ العريق ان يمسي بلا تاريخ ؟ واذا هجرنا العالم ، فهل يهجرنا العالم ؟

الهرب من التاريخ لعنة لا بركة . وما أشبه الباحث عن النشوة في اللاعالم ببقرة تعلن «انها ستتوقف عن در اللبن لتتعلم الكيمياء» . وقد لا يكون من المستحيل ان ينتصب الثعلب «حارسا بين الدجاج» او ان يتبختر العقرب «في لباس ممرضة» ، ولكن يستحيل على الإنسان الا يكون حاضرا في العالم .

وها هو العالم يغزو الهارب منه ويقتحم عليه خلوته بأعنف شكل ممكن في شخص عثمان خليل الفار من جديد من رجال الشرطة (١) . عثمان خليل الذي تزوج من بثينة عن حب رغم فارق السن تجسيدا للقاء المتجدد بين النضال والشعر ، وبات له منها في أحشائها جنين ، وجاء ليطالب عمر بالعودة الى اسرته لرعايتها ورعاية حفيده المنتظر . ولكن عمر يرفض هذه الفرصة الاخيرة لافتداء روحه بعناد من بات يؤثر ان ينكر وجود العالم على الاقرار بأنه قد اضاع العمر يطارد سرابا في سراب .

ويودعه عثمان بحزن ويأس ، ولكنه سرعان ما يعود أدراجه وهو يردد مهتاجا :

ــ جاؤوا ... كيف اهتدوا الي بهذه السرعة ... انني محاصر ...

ويرتفع صوت رجال الشرطة :

---

١ ــ ان شخصية عثمان خليل من اغنى الشخصيات التي خلقها نجيب محفوظ ، بالرغم من ضآلة الحجم الذي يحتله في القصة . ولو كنا معنيين هنا بدراسة الموقف السياسي لنجيب محفوظ لكنا وقفنا عنده مطولا .

ـ سلم نفسك ، عثمان خليل ... سلـــــم نفسك ، انت محاصر من جميع الجهات .

وتختلط الامور على عمر ويظن نفسه في حلم من جديـــد ويغمغم :

ـ الشيطان يتمادى في عبثه ولكني لست محاصرا ، بـل انا حر .

ويعلو الصوت الرهيب ثانية :

ـ المقاومة لا جدوى منها ولا معنى لها .

ويغمغم عمر بعناد الاعمى :

ـ كل شيء له معنى .

ويعود الصوت الرهيب :

ـ سلم يا عثمان ... الا ترى ان اي مقاومة عبث ؟

ويغمغم عمر بعناد من ضربت على عينيه غشاوة :

ـ لا شيء في الوجود عبث .

ويزعق الصوت الرهيب :

ـ انتهى ... قبض عليه ... انتهى كل شيء ...

ويغمغم عمر بعناد من يرفض ان يرى :

ـ ليس لشيء نهاية .

ويظل مصرا على الا يفيق حتى بعد ان تخترق رصاصـــة ترقوته .

وفي سيارة الشرطة التي تقله وعثمان معا يردد في نفسه انه ما يزال في حلم : «ترى ماذا يعني هذا الحلم ؟ ومتى انتصر على الشيطان وعبثه ؟ ومتى تختفي احلامي من الدنيا ومـــن فيها ؟ ومتى ارى وجه من هجرت الدنيا من اجله ؟»

ولكن الالم الحاد المستقر في منكبه يرغمه ارغاما علـــى ان يستيقظ ليدرك انه «في الواقع لا في حلم ، وانه راجع فـــي الحقيقة الى الدنيا» .

و «وجد نفسه يحاول تذكر بيت من الشعر . متى قـــرأه وأي شاعر غناه ؟» وتردد الشعر في وعيه بوضوح عجيب : «ان تكن تريدني حقا فلمَ هجرتني ؟» .

ان تكن تريدني فلمَ هجرتني ؟ هي الجملة الاخيرة التـــي تتردد في وعيه . وهي الجملة الاخيرة في الكتاب . وهي حكم نجيب محفوظ الاخير : ليس **الطريق** الى جبلاوي أن نهجر العالم وأن نتخلى ، بل أن ننتمي اليه ونشارك في صياغـــة الحياة . وعمر بهجرانه العالم قد هجر الرب نفسه . ولم يكن ذلك في خلاء الصحراء ، وانما في خلاء روحه منذ ان خلت روحه قبل عشرين عاما ، حين مات في قلبه الشعر والنضال والرب معا .

ترى هل ثمة من حاجة للتوكيد من جديد على ان نجيب محفوظ يقدم الدليل ، في **الشحاذ** كما في **الطريق** ، على انــه اكثر الروائيين العرب تقدمية في طرح مشكلة الله من وجهـــة نظر تؤمن بالله وبالانسان معا ؟ وهل ثمة من حاجة للتكرار بأن المدلول التقدمي لـ **الشحاذ** يرجع جوهرا واساسا الى ان المشكلة الميتافيزيقية فيها تتلبس مضمونها العيني بوصفها مشكلـــــة اجتماعية في الجوهر والاساس ، مشكلة انتماء الى العالـــــم والتزام به ومشاركة في صياغته ؟ وهذا في مجتمع «شرقي» يتضامن لاهوتيوه مع تقاليده الصوفية والتسولية على الافتراض بأن الله والعالم على طرفي نقيض، لا يلتقيان ولا يلتقي طريقاهما؟

ثرثرة فوق النيل

لن نتعرض لهذه الرواية التي صدرت عام ١٩٦٦ الا بأسطر قليلة لانها لا تدخل الا بصورة غير مباشرة في مخطط دراستنـــا هذه . فهي ليست رواية عن الله ، وانما عن غياب الله .

كان نجيب محفوظ ، بعد ان انهى كتابة **الشحاذ** ، قـــــد طرح على نفسه هذا السؤال بصدد اخلاقية الانسان المعاصر : «ثمة أناس بلا دين ، فكيف يمكن التعامل معهم وكيف يمكن ان يتعاملوا هم مع الحياة ؟» (١) . ورواية «ثرثرة فوق النيل» هي محاولة للاجابة على هذا السؤال .

جماعة من العبثيين تعيش حياة ليلية في عوامة فـــــوق النيل ، مستغنية بنشوة المخدر عن كل ما في الوجود من قيم. ويوما تخرج الجماعة في نزهة في سيارة مجنونة ، وتتسبب في موت انسان مجهول . وينطرح السؤال بكل حدته : اذا لم يكن الله موجـــــودا فهل كل شيء مباح للانسان كمـــــا افترض دوستويفسكي ؟ وبعبارة اخرى : هل ستتابع الجماعة حياتهـا العابثة كما في السابق وكأن شيئا لم يكن أم ان الجريمة جريمة حتى بالنسبة الى اناس أسقطوا الله من اعتبارهم ؟

ولا مجال للشك في الجواب الذي اختاره نجيب محفوظ. فالمذهب الانساني الذي عالج به كبرى المشكلات الميتافيزيقية ، يؤكد في **ثرثرة فوق النيل** طابعه الجذري : ان الانسان انسان حتى في حال غياب الله ، والجريمة جريمة حتى بالنسبة الـــى انسان أسقط الله من اعتباره ، ولا مفر من ان تضع حدا للعبث حتى لو كانت هي نفسها عبثية .

واذا لم يكن هناك مفر من استخدام المصطلحات الميتافيزيقية، فلنقل ان **ثرثرة فوق النيل** توكيد آخر بأن المعجزة الكبرى فـــي هذا الوجود هي الانسان . وهذه حقيقة قد تغيب عن اولئــك الذين لا يريدون ان يروا من وجوه هذا الوجود غير المعجزات .

---

١ ــ راجع تصريحه في مجلة «الكتاب العربي» ، عدد كانون الاول ١٩٦٤ .

حارة العشاق

مع هزيمة حزيران ١٩٦٧ كان من المحتم ان يخلي العديد من الاسئلة القديمة الساح امام اسئلة جديدة متحددة ـ واجوبتها ـ بالهزيمة .

وقد افسح نجيب محفوظ في قصصه القصيرة ـ ومن النقاد من يعرّف القصة القصيرة بأنها فن الجماعات المسحوقة ـ المجال واسعا امام تلك الاسئلة الجديدة ، ولكن الاسئلة القديمة لم تتوقف عن طرح نفسها عليه بالحاح مماثل . وهكذا كتب في عام ١٩٦٩ قصة **حارة العشاق** ثم أتبعها بقصتين اخريين **الرجل الذي فقد ذاكرته مرتين** (١) و **حكاية بلا بداية ولا نهاية**. وقد نشر القصص الثلاث معا في مجموعة حملت عنوان القصة الاخيرة .

ولا نريد ههنا أن نتوقف عند التفسيرات المغلوطة او شبه المغلوطة التي قدمها النقاد لـ **حارة العشاق**. ولكن يكفي ان نثبت هنا ما قاله نجيب محفوظ بصدد ذلك :

«انني أكتب الرواية او القصة فيفسرها الناقد التفسير الذي يريد ويفسرها القارىء التفسير الذي يريد ولكل منهما حقه في التفسير ... وربما كان تفسير الناقد او القارىء يختلف تماما عن تفسيري انا الخاص ورؤيتي الذاتية للعمل بمثل ما حدث اخيرا معي بعد ان نشرت آخر حوارياتي «حارة

---

١ ـ بالرغم من ان الله حاضر حضورا فيزيائيا في هذه القصة فلن نتناولها بالتحليل ، لانها في جوهرها قصة عن الانسان ، بل قصة الانسان. وفيها يؤكد نجيب محفوظ من جديد مذهبه الانساني بتوكيده ان القرار الاخير للعناية الالهية هو ان تدع الانسان وشأنه .

العشاق ... لقد التقيت بعدد مـن الاصدقاء والكتاب فقال كل منهم شيئا مختلفا عن الآخر في هذه الحوارية ... واقول ان كل ما قالوه يختلف تماما عما كان يجـول في راسي وانـا اكتبها ... ولكنني اقول ايضا ان من حق كل منهـم ان يرى منها ما يريد ...» (١) .

وبالرغم من تقديرنا الكبير لآراء نجيب محفوظ ، فاننا نرى ان موقفه من النقاد متسامح اكثر مما ينبغي . فهل صحيح ان من حق الناقد ان يفسر العمل الادبي كما يريد ، ام ان مـن واجبه ان يفسره على حقيقته ، كما هو ، بقدر الامكان بالطبع ؟

بديهي ان العمل الادبي ــ كل عمل ادبي ــ يحمل بين طياته مدلولات متعددة . ولكن ما دام العمل الادبي يملك حدا أدنى من الوجود الموضوعي ، فان الاختلاف في تفسيره لا يستطيـع ان يتعدى حدودا معلومة والا حامت الشبهات حول العمل نفسه او حول المتصدي لتفسيره .

ونحن لا ندري ما المسؤول الاخير عن التخبط في تفسـير **حارة العشاق** : أهو ضعف الحس النقدي لدى بعض النقاد أم صعوبة النص نفسه الاقرب الى ان يكون ــ مع سائر قصـص نجيب محفوظ بعد الهزيمة ــ أحجية ؟ (٢) .

---

١ ــ مجلة «الهلال» ــ عدد خاص عن نجيب محفوظ ــ شباط ١٩٧٠ ــ ص ٢٠٤ .

٢ ــ راجع تصريح نجيب محفوظ في «الهلال» شباط ١٩٧٠ ــ ص ٤٤ : «لو صح ان كتاباتي تحولت الى ما يشبه الفوازير والاحاجي بعد النكسة ، فلربما كان تفسير ذلك ان حياتي ــ وربما حياة الآخرين ــ تحولت الى ما يشبه الفوازير والاحاجي بعد النكسة» .

وعلى كل ، فان مفتاح **حارة العشاق** ينبغي البحث عنه — في رأينا — على مستوى استمرارية رؤيا نجيب محفوظ ، او على مستوى استمرارية «مسأليته» (problématique) التي تمثل فيها مشكلة الله مشكلة مركزية .

من هذا المنظور فان **حارة العشاق** ليست قصة يقين بل قصة شك . ليست قصة بحث عن زعبلاوي وايمان بضرورة الوصول اليه ، بل قصة ما بعد الوصول والجواب الذي ينقلب ابدا من جديد سؤالا . وهي ايضا ، بعكس قصة **زعبلاوي** ، ليست قصة رحلة معكوسة او انحدارية في مدارج المعرفة ، بل قصة رحلة ارتقائية من أشكال المعرفة الادنى الى أشكالها الاعلى .

بطل القصة موظف صغير يدعى عبد الله . تزوج قبل خمس سنوات عن حب عارم من فتاة تدعى هنية ، وعاش معها حياة لا تعرف غير الكدح في سبيل لقمة العيش — وان تكن في الوقت نفسه حياة سعيدة ملؤها الحب والطمأنينة — الى ان رقي من مجرد موظف أرشيف خارج الهيئة الى مراجع وحدة «ينتهي عمله في تمام الثانية بعد الظهر مثل كبار الموظفين» .

ومع هذه الترقية التي ارتجت منها هنية كل خير ومزيدا من ساعات الانس مع الزوج ، بدأت أزمة عبد الله . فقد اتاح له الفراغ ان يرى زوجته عن قرب اقرب وأن يلاحظ ان بين شبان الحارة من يتعرض لها بالمغازلة حين تخرج للتسوق وأنها هي نفسها لا تتأبى وأن الفران بوجه خاص قد تجرأ حتى على احتضانها . وبعد اخذ ورد يوجه اليها التهمة التي لا مناص من توجيهها في هذه الحال ، ويلفظ الحكم الذي لا عودة عنه :

— أنت طالق !

ولا يملك القارىء الا ان يقر بأن القصة ، في فصلها الاول هذا ، تنطوي على «واقعية تكاد ان تكون فوتوغرافية» ، ولكنه لا يملك ان يتقدم في فهم فصولها التالية الا اذا اعاد تأويل الفصل الاول نفسه من منطلق رمزي .

واول الرموز يكمن في اسم البطل نفسه : «عبد الله» . فالانسان عبد الله مرتين : لان الله خالقه وسيده ؛ ولانه في الوقت نفسه معبوده . والهناء أجر من يعيش في جوار الله . ومن هنا كانت الزوجة تدعى «هنية» .

ثم تأتي مسألة الترقية . فالزوجة قد تلقت نبأها بحبور لانها بفضلها ستهنأ بمجالسة عبد الله كل عصر ، وهو امر ما كان لها ان تطالبه به قبل الترقية . ولكن هذه الترقية خيبت آمالها : فبدلا من ان تكون ـ كما يجب ان تكون ـ وعدا بمزيد من الحب والتلاقي فتحت ابواب جحيم الشك على مصاريعها .

ترقية من ؟ ترقية عبد الله . ولكن من هو عبد الله ؟

عبد الله على المستوى الواقعي **انسان** ، ولكنه على المستوى الرمزي **الانسان** .

والانسان نال الترقية الاولى في تاريخه حين خرج من طور بدائيته . كان سعيه في سبيل أود الحياة يستغرق وقته كله . وحين استطاع ان يخترع أدوات العمل الاولى ، استطاع ان يقتصد شيئا من وقته ليكرسه لغير مسألة أود الحياة . وبفضل هذا الاقتصاد في زمن العمل أمكن له ان يتحرر من قيود البدائية الاولى او مما يسميه الانتروبولوجيون بمرحلة ما قبل التاريخ . ولكن مع ذلك الاقتصاد وهذا التحرر بدات الاعراض الاولى للقلق الانساني بالظهور . فقد كان الانسان في طوره البدائي جزءا من الطبيعة لا يتميز عنها . لا افكار ولا اسئلة ، بل طمأنينة واندماج . ولم تكن مشكلة الله مطروحة لان الله والطبيعة كانا شيئا واحدا . يقول عبد الله في وصف طمأنينة تلك الايام الاولى :

ـ تلك الايام ! كنت موظف ارشيف خارج الهيئة (١) اعمل

---

١ ـ ترى الا ينبغي ان نرى في هذا العمل خارج الهيئة قبل الترقية رمزا الى ما قبل تاريخ الانسان ؟

عملا متواصلا من طلعة الصبح حتى اول الليل . حتى الغـــداء كنت أتناوله تحت أرفف الارشيف ، فقير كادح وزوج عاشق ، حتى النسل اجلته لحين تتحسن الاحوال ، لا وقت للتفكير ، لا وقت للنظر ، عمل عمل عمل ، واعود اليكَ (الى هنية) مرهقــا ولكن بفؤاد حي مشتاق ، نتبـــادل الحديث ، نتناول العشاء ، نسعد بالحب ، ننام النوم العميق ، لا أفكار ولا اكدار ، ثقة لا حد لها بكل شيء ، بك وبنفسي وبالله ، وايمان لا حد له بـــك وبنفسي وبالله ، كل شيء ثابت الاركان مدعم البنيان ، جري بلا انقطاع وراء لقمة العيش ، طمأنينة شاملــــة ، حب يتبادل بقوة تضاهي قوة دوران الارض !

ولكن «الترقية» نقلت الانسان من حال الى حال . كــــان خارج التاريخ فصار فيه . كان عنصره فغدا عامله . تهيأ لـــه وقت فراغ ، اي وقت مكرس للتأمل والتفكير ومعرفة الــذات والآخرين ، وقت اتاح للدماغ ان ينمو بعد ان سبقته فـــــي التطور الاطراف والاعضاء الخارجية المتصلـــــة اتصالا مباشرا بالسعي وراء أود الحياة . يقول عبد الله مؤرخا لهذه المرحلة من تطور الانسان :

ــ الحق ان الفراغ خلقني من جديد .

ويضيف :

ــ وعرفت نفسي بعد ان كانت حواسي مشدودة دائما الى الخارج ... ورأيت حارتنا على الضوء ... وتوثقت علاقتـــي بالجيران .

ولقد كان من المفروض ان يستفيد الانسان من وقت الفراغ هذا لكي يوثق معرفته بالله ويزداد منه قربا وحبا ــ بحسب ما كانت تتوقع هنية ــ ولكن العكس هو الذي حدث : فقد ولت مرحلة اليقين والطمأنينة والاندماج الكلي بالله وبالطبيعة لتخلفها مرحلة تساؤل وشك :

عبد الله : الحق اني عانيت تجربة جديدة كل الجدة وهي الشك !

هنية (باستياء) : الشك ؟

عبد الله : كمن صحا من نوم ثقيل على لسع عود ثقاب مشتعل .

هنية (بامتعاض وغضب) : أطلعني على أفكارك اكثر ...

عبد الله : قلت انت الشك وكفى .

والشك وقعه على العابد والمعبود معا أليم . للاول عذاب السؤال ، وللثاني طعنة الكبرياء الجريح . والعابد لا يملك ، حتى يضع حدا لعذابه ، الا ان يطالب المعبود بابراز دليل براءته (او وجوده) . والمعبود لا يملك الا ان يرفض اشهار الدليل المطلوب لان كبرياءه تأبى عليه الوقوف في قفص الاتهام :

عبد الله : هل لديك دفاع ؟

هنية : لست متهمة .

عبد الله : هل لديك تفسير ؟

هنية : انت مجنون .

عبد الله : لا مفر من المواجهة .

هنية : كم انك كريه أعمى .

عبد الله : هاتي دفاعك .

هنية (بكبرياء وغضب جنوني) : لا تردد كلمة الدفاع ، لا اسمح لك .

ولأن العابد هو الذي اختار ان يشك ، ولأن حل الازمة ليس في يد احد غير يده ، فان هنية هي التي تبادر الى هجران بيت الزوجية ، تاركة لعبد الله ان يتدبر امره بنفسه : فهو الذي أوقع نفسه في المأزق ، وعليه بنفسه ان يجد المخرج .

ولنيس من عجب ان تكون هنية قد اختارت السلبية موقفا وابت ان تأخذ بيد عبد الله الى الحقيقة . فالانسان ، كما لا ينى نجيب محفوظ يؤكد ، هو المسؤول الاخير عن نفسه ،

وعلاقته بالله هو الذي يحددها لا الله .

وها هو عبد الله ، في الفصل الثاني من القصة ، يجلس في غرفة الجلوس وحيدا «لم يحلق ذقنه ولم يمشط شعره»(١)، وقد اخذت منه الكآبة كل مأخذ . فوجوده بذهاب هنية قد فقد معناه :

ــ يجب ان أعترف بأنني غير سعيد وبأنني لا اجد لحياتي معنى .

وذلكم هو مأزق الانسان . سعى الى الترقية بكل جوارحه ليفوز بشيء من وقت الفراغ ، فاذا بالفراغ يستقر في روحه بالذات .

فما العلاج ؟ وما المخرج ؟

مهما بدت المفارقة كبيرة ، فلا علاج ولا مخرج الا بمزيد من الترقية .

فالترقية الاولى قد اقتصرت على الحواس . **رأى** عبد الله ما كان لا يراه ، **وسمع** ما كان لا يسمعه ، فهصره الشك . ولكن هل الحواس معيار لا يخطىء ؟ وهل يقينها يقين ؟ أوليس في مراتب المعرفة ما يتقدم عليها درجات ودرجات ؟

وهذا هو إمام الحارة ، الشيخ مروان عبد النبي ، يحاول ان ينتشل عبد الله مما هو فيه من حزن ، مؤكدا له أن ثمة أمرين لا يجوز له ان ينساهما في تجربته القاسية العاصفة .

الاول :

ــ لا تنسَ ان الايمان بالله هو الملاذ الاخير من جميع الاحزان .

---

١ ــ من المفيد ان ننوه بأن حرص نجيب محفوظ على مثل هذه التفاصيل الواقعية الصغيرة يكسب قصصه الاكثر تجريدا ثقل الوجود العيني الفيزيائي.

والثاني :

ـ لا تنسَ أن تتثبت من حقيقةَ التجربة التي عصفت بك !

والشيخ مروان وطيد اليقين بأن الزوجة بريئة من كل ما رماها به عبد الله . واذا اعترض هذا الاخير بأنه بعينيه رأى وبأذنيه سمع ، وبأنه لا يمكن للمرء ان يشك في حواسه ، رد عليه بحسم :

ـ حواسنا ؟ عليها اللعنة ، تلك المرايا المشوهة التي لم تخلق الا لتشهد بكذبها بصدق حدس القلب .

الشيخ مروان عبد النبي (١) يمثل اذن المرحلة الثانية من ترقية الانسان : حدس القلب والايمان الديني الذي يتقدم في سلم المعرفة درجة على احساسات الحواس :

ـ حدثني عن قلبك لا عن الوقائع الخارجية ! نحن لا نحيا حقا حتى يمتلىء قلبنا بالأيمان . وإنك في صميم قلبك ترحب بكافة الحقائق التي كشفتها لك ، لا تنكر ذلك ، انك تحبها ولا غنى لك عنها ، انك تنتظر اللحظة التي أدعوك فيها الى ردها الى عصمتك .

وقد تراود عبد الله الرغبة ، كيما ينجو بنفسه من مأزقه ، في ان يتراجع خطوة الى الوراء بدلا من ان يتقدم خطوة الى الامام . قد تراوده الرغبة في العودة الى بدائيته يوم كان العمل يستغرق وقته كله ويوم كان قويا وسعيدا معا يجهل الافكار والاكدار . ولكن الشيخ مروان يقطع عليه طريق هذا الحل بقوله :

ـ تلك جنة الحيوان . اما الايمان الحقيقي فلا تكمل اسبابه الا بالتأمل والصلاة والدرس .

أجل ، ليس التراجع بحل ، ولا كذلك المراوحة في المكان

---

١ ـ واسمه نفسه (عبد النبي) مشحون برمزية لا تحتاج الى ايضاح .

نفسه . ليس من حل امام الانسان الا ان يتقدم الى الامام ويقطع شوطا آخر في مدارج المعرفة :

ـ عليك ان تغير حياتك .

ويعود الشيخ مروان الى الالحاح على هذه الفكرة ثانية :

ـ ولكن عليك ان تغير حياتك . فبادر الى الانجاب بعد ان منّ الله عليك باليسر (١) ، وتردد على الزاوية في اوقات الصلاة المتاحة ، ولا يفوتنك درس من دروسي الدينية .

وبالفعل ، ان الدين هو معادلة المعرفة عن طريق القلب . فالانسان البدائي ما كان بحاجة الى دين ، لانه كان محايثا لله، مندمجا فيه . ولم يكن ظهور الدين في التاريخ الا تعبيرا عن تمايز الانسان عن الله والطبيعة ، وترجمة للحاجة الى معرفة الله بوسائل ارقى من الوسائل الحسية ، المباشرة ، البدائية .

ان معرفة الله يجب ان ترقى بالتوازي مع رقي الانسان . يقول الشيخ مروان :

ـ آن لك ان تؤمن كما يؤمن الانسان الكامل، وسوف تعرف الروح وبهجتها ، ومعنى الحياة الزوجية ومسراتها الحقيقية ، وستعرف الى ذلك كله كيف تهزم الشيطان اذا تصدى لك بلعبة من الاعيبه !

ويعرف عبد الله هذا كله : يرد هنية الى عصمته ، ويقضي بجانبها سويعات في غاية الهناء والصفاء والحبور ، وينجب منها بعد طول امتناع وليده الاول ويسميه تيمنا باسم الشيخ مروان. ولم يكن هذا الوليد الاول ، الذي ما كان في وسع عبد الله ان ينجبه قبل «الترقية» ، الا القلب ، او بتعبير ادق الدين .

---

١ ـ سوف نرى ان فكرة الانجاب هذه التي يلح عليها نجيب محفوظ الحاحا خاصا تنطوي بدورها على مدلول رمزي .

ولكن هل يتوقف تطور الانسان ؟ وهل يمثل القلب اعلى درجات المعرفة ؟

يقينا ، ان القلب اعلى مرتبة من الحواس ، ولكنه ليس المرتبة العليا . وها هي الشكوك تعاود حصارها لعبد الله ، لتفتح فصلا جديدا في تاريخ الانسان وفصلا ثالثا في قصة **حارة العشاق** .

عام كامل انقضى منذ أوبة هنية ، وعبد الله لم يتخلف مرة واحدة عن دروس الزاوية . ولكن الدروس اصبحت ، مع مر الزمن ، مضجرة ، وكذلك الشيخ مروان . لماذا ؟ لان الدين فقد نفحته الاولى ، روحه الخلاقة . تحول الى طقوس ، الى روتين، الى كلمات مكررة معادة :

هنية : ماذا هنالك ؟

عبد الله : ذلك الشيخ !

هنية : ؟؟

عبد الله : اصبح مضجرا !

هنية : الشيخ مروان ؟!

عبد الله : نعم .

هنية : حدث بينكما شيء ؟

عبد الله : يعيد ما يقول ويقول ما يعيد، بطريقة رجل يحفظ كلمات معادة عن ظهر قلب ، كالببغاء ، كالآلة ، ودائما بلا روح !

هنية : شد ما تحمست له يا عبد الله !

عبد الله : لا انكر انني كنت مبهورا به ، ولكنه مضى يتكشف لي على حقيقته ، قاومت الملل شهورا ، انتظرت عبثا ان يقول شيئا جديدا ، ولكن لا جديد . رجل يؤدي وظيفته بلا روح ، ينادي على بضاعته كبياع البطاطة .

هنية : متى اكتشفت ذلك ؟

عبد الله : منذ زمن قصير ، ولكن ليس من اليسير ان

نجازف بإنكار ما تعودنا الايمان به !

وليت الدين تحول الى محض شعائـــر وطقوس فحسب . فقد خرج ايضا ، في غالب الاحيان ، عن رسالته الاصلية ، اذ احتكره اغنياء الارض في ما احتكروه ، واتخذوا منه مركبـــا ومطية. كما ان رجاله لم يستطيعوا في أحيان كثيرة ان يحافظوا له على مكانته الاولى ، فقدموا عليه الدنيا وشهواتها ، وجعلـوا من انفسهم سدنة للعجل الذهبي . يقول عبد الله عن الشيـخ مروان :

ـ تبين لي انه غير جدير بالمركز الذي يشغله ... اتضـح لي انه شره ، وانه في سبيل اشباع شراهته لا يتورع عن التودد المهين ... واول ما نفرني منه تهالكه على تصيد الدعوات الـى ولائم التجار بالحارة !» .

والشك في الشيخ مروان لا بد ان يرتد على هنية نفسها . وعبد الله لا يتأخر عن توجيه التهمة الرهيبة اليها من جديد . ومن جديد ايضا تثور ثائرة هنية وتعلن انها لن تبقى معه بعـد الان لحظة واحدة ، وتغادر البيت وهي تنتفض غضبا، وعبد الله يصيح وراءها :

ـ في داهية ... والف داهية ، وانت طالق !

ويخيم على البيت الذي كان عشا للسعادة وجـوم وصمت موحش . ويتقلب عبد الله على شوك محنة لا تقل عن الاولـــى ضراوة . ويجيل الطرف حوله بالتياع متسائلا : اين المخرج ؟

ويأتيه الجواب في شخص معلـم الحارة ، الاستاذ عنتر : المخرج في المزيد من الترقية :

ـ فكر جديا في تجديد حياتك من جذورها... لقد ضيعت في الارشيف عمرا (سديم ما قبل التاريخ) ، وفي المقهى عمـرا (الفراغ كزمن حضاري) ، وفي الزاوية عمرا (الدين) ، ومن حق الثقافة عليك ان تهبها بعض عمرك ...

ولأن الاستاذ عنتر [1] يمثل مرتبة من المعرفة أرقى من القلب ، المعرفة عن طريق العقل ، فانه انسان يتكلم ويحب ان يتكلم الآخرون بهدوء واتزان ووضوح :

ـ علينا ان نسترد هدوءنا واتزاننا قبل كل شيء .

ثـم :

ـ انك تمتلك اقوى قوة في الوجود وهي العقل .

وعلى ضوء العقل والبصيرة وحدهما ينبغي ان تناقش الخيانة المزعومة :

عبد الله : لقد رايت بعيني وسمعت باذني !

عنتر : لا تباه بأدوات الخطأ .

عبد الله : سمعت مثل ذلك من قبل ، الوغد قاله لي !

عنتر : حقا ؟

عبد الله : لعن الحواس واشاد بالقلب .

عنتر : وإني ألعنها ايضا ولكن لحساب العقل !

وعلى محك العقل تتهاوى التهم جميعا وتتفتت ، وكنور البصيرة تشرق براءة الشيخ مروان والزوجة معا .

وتعود هنية ـ ومعها الهناء ـ الى عصمة عبد الله وينجب منها وليده الواقعي ـ الرمزي الثاني ويسميه تيمنا باسم الاستاذ عنتر .

وفي ملاذ القلب والعقل معا يعرف عبد الله في جوار هنية سويعات من السعادة الغامرة . ولكن هذه الحال القديمة ـ الجديدة لا يمكن ان تدوم ، لان الانسان لم يدرك بعد «السقف» في الترقية ، ولعله لن يدركه ابدا . والشوط الذي قطعه على كل حال ليس بقليل : من السديم او من اللامعرفة ارتقى الى

---

1 ـ رمزية هذا الاسم تجد تبريرها في عصر الفتوحات العقلية الكبرى (القرن الثامن عشر وفلسفة الانوار) التي بدت وكأنها «عنتريات» فعلا .

المعرفة الحسية ، ومن معرفة الحواس الى المعرفة القلبية او الحدسية او الدينية ، ومن هذه الاخيرة الى المعرفة العقلية او الفلسفية ، وأحدث اشكال المعرفة وأرقاها ما يزال بانتظاره : المعرفة العلمية .

وهذا الشكل من المعرفة يمثله شيخ الحارة ومرشد المباحث مراد عبد القوي . ولأن نجيب محفوظ جعل منه مرشدا للمباحث ، فقد وقف النقاد امام «لفز» هذا الرجل حائرين متخبطين . وقد غاب عنهم ان «المباحث» ليست الا كناية عن العلم ، العلم الذي هو ارادة وقوة كما يشير الى ذلك اسم شيخ الحارة .

ولا مجال للشك في ماهية الرمز : فمهمة شيخ الحارة «تنحصر في جمع المعلومات» ، والحقائق التي يتوصل اليها هي من النوع العام الذي لا يجوز ان يختلف عليه اثنان وليست من النوع الخاص الذي امكن معه لبيرانديللو على سبيل المثال ان يقول : «لكل حقيقته» . ومن هنا فان شيخ الحارة يعمل ، كالعلم ، في خدمة النوع ، في خدمة المجموع ، ولا يقيم اعتبارا للمشكلات الخاصة بكل فرد خاص على حدة . ولهذا يصر مراد عبد القوي على ان «مهمته تتعلق بأمن الحارة وسلامتها ولا شأن له بحياة الافراد» :

عبد الله : ولكن الحارة وأهلها شيء واحد .

مراد عبد القوي : الحارة شيء وأهلها شيء آخر .

عبد الله : لا أفهم ذلك .

مراد عبد القوي : الحارة كل لا يتجزأ وليس من العسير أن أعرف ما ينفعها وما يضرها ، اما اهلها فأفراد لا حصر لهم، وتتعدد مشكلاتهم بتعدد أهوائهم .

وأحكام شيخ الحارة ، كأحكام العلم ، وصفية ، إثباتية ، وضعية ، أحكام على صعيد الوقائع وليست أحكاما تقييمية او

معيارية او أخلاقية :

مراد عبد القوي : اني أقدم معلومات ، اما الحكم عليها فمن اختصاص غيري .

عبد الله : ولكن لا شك ان لك انطباعك عن المعلومات التي تتجمع لديك ؟

مراد عبد القوي : لا استطيع الجزم بشيء ، اني اعرف على سبيل المثال ان أ قابل ب في الساعة د في المكان هـ . الواقعة مؤكدة ولكن ماذا تعني عند أهل الاختصاص ؟ قد يعقب ذلك القبض على أ ، او على ب ، او على أ و ب معا ، وقد لا يقع شيء البتة ...

عبد الله : فاذا تم القبض فهذا يعني الادانة .

مراد عبد القوي : كلا .

عبد الله : ولكن كيف ؟

مراد عبد القوي : قد يفرج عن المقبوض عليه بعد وقت ما ، وقد يتضح ان القبض على أ و ب كان بغرض الايقاع بثالث مجهول هو و ...

عبد الله : اي حيرة !

مراد عبد القوي : هو الطريق الى الحقيقة !

ولهذا على وجه التحديد يرفض مراد عبد القوي ان يدلي برأي او بحكم بصدد النبأ الذي اهتزت له الحارة ، نبأ اعتقال الشيخ مروان عبد النبي والاستاذ عنتر ، بناء على المعلومات التي قدمها عنهما .

وهذا الاعتقال يجد تبريره على المستوى الواقعي في ما تردد من شائعات حول تعاطي إمام الحارة ومعلمها للمخدرات وحتى للفجور . اما على المستوى الرمزي فانه ترجمة لعلامة الاستفهام التيوضعها العلم حول المعرفة القلبية الحدسية وحول المعرفة العقلية الفلسفية . وهذا في مرحلة اولى امر طبيعي تماما : فالحدس والفلسفة هما ما قبل تاريخ العلم ، وهو أرقى

منهما بما لا يحتمل الشك في مراتب المعرفة . ولكن ماذا بعد علامة الاستفهام ؟ أهي الادانة ام البراءة؟ ان شيخ الحارة يرفض الاجابة على هذا السؤال ، لانه يخرج عن اختصاصه ، ولأن أحكام العلم ليست احكام قيمة .

ثم هل يكفي ان يكون شكل من اشكال المعرفة أرقى من غيره حتى يغني عنها جميعا ؟ وبعبارة اخرى ، هل تغني المعرفة العلمية ، على رقيها ، عن معرفة القلب وعن معرفة العقل وحتى عن معرفة الحواس ؟ وهل يفقد إمام الحارة ومعلمها كل مبرر لوجودهما بوجود شيخ الحارة ؟

ان اهل الحارة هم الذين يجيبون على هذا السؤال بانقسامهم على انفسهم . شطر يقول :

ــ لا يمكن ان يخطىء الرجلان .

وشطر آخر يقول :

ــ لا يمكن ان يخطىء الرجل .

وشطر ثالث يتفرج ويرجىء الحكم :

ــ يا لها من بلبلة ، لن نتفق على رأي .

وبلبلة عبد الله تفوق بلبلة اهل الحارة جميعا . فهو لم يرجع هنية الى عصمته الا «استنادا الى الثقة الكاملة» بالشيخ مروان والاستاذ عنتر . ولكن اعتقال الرجلين احيا في صدره دفين الاسئلة . فهل هما مذنبان ؟ ام هل هما بريئان ؟ ان معنى وجوده كله يتوقف على الجواب . ولكن اين الجواب ؟ واذا ما وجد الجواب أفلن يتحول بدوره الى سؤال ؟

الحق ان الطمأنينة ليست قدر الانسان ولا قدر عبد الله : «لا مفر من التساؤل حتى الموت» . والتساؤل شك . وفي جو الشك لا تستطيع هنية حياة . صحيح أن عبد الله لم يعاود رميها بالتهمة الرهيبة ، ولكنها باتت أدرى منه بدخيلة نفسه . وهي هذه المرة لن تنتظر ان يوجه اليها التهمة الرهيبة لتهجر

بيت الزوجية ، بل ستترك له فرصة اخيرة لقرار اخير :
ـ اذا غادرت بيتك للمرةالثالثة فستكون الثالثة والاخيرة..
اني ذاهبة ، وعليك ان تحسم امرك للمرة الاخيرة والى الابد .

القرار الاخير اذن بيد عبد الله . وحكم الادانة او البراءة يجب ان يصدر عنه هو نفسه . ولكن ما المعطيات او المستندات او المستمسكات التي يمكن ان يبني عليها حكما ؟

هناك قبل كل شيء اهل الحارة الذين يشاركونه هذه المرة ازمته . فالرجلان اللذان ألقي القبض عليهما «اتصلا بأسر كثيرة ونزلا منها نفس المنزلة التي نزلاها من أسرته» . ترى الا يستطيع ان يجد حلا لمشكلته الخاصة من خلال الحل الذي اختاره الآخرون ؟ هذا ما يتبادر الى ذهنه للوهلة الاولى ، ولكنه سرعان ما يدرك عقم مثل هذا الحل العام واستحالته معا . فالمسألة هي اولا وأخيرا مسألة اختيار فردي ، وتجارب الآخرين غير قابلة للتعميم :

عبد الله (باهتمام) : حدثني عما وقع لتلك الأسر ؟

مراد عبد القوي (بلا اكتراث) : منهم من خاب ظنه فيهما فطلق ، ومنهم من أصر على الثقة بهما فمضت حياتهم كما كانت تمضي من قبل دون أدنى تأثر ، ومنهم من لم يستقر على راي فتردى في هاوية العذاب .

وكيف يكون للآخرين أصلا موقف واحد ما دام منهم من «يكره زوجته ، وآخر يحبها حتى العبادة ، وثالث لا هو يحبها ولا هو يكرهها» ؟

أليس هناك اذن من حقيقة ؟ بلى ولكنها حقيقة تتحكم بها الاهواء . فمن يحب «زوجته» لا يمكن ان يداخله شك في براءة الرجلين ، ومن يكره «زوجته» لا يمكن ان يداخله شك في كونهما مذنبين، ومن لا يكره «زوجته» ولا يحبها يعش ابد الدهر في هاوية القلق والعذاب .

ولكن أليس للعلم من كلمة يقولها في القضية ؟

كان ذلك ممكنا لو انها كانت قضية وقائعموضوعية لا قضية اهواء ذاتية .

وكان ذلك ممكنا لو انها كانت قضية عامة لا خاصة .

وكان ذلك ممكنا ايضا لو كان الحكم الذي ينبغي ان يصدر فيها حكما وضعيا لا تقييميا .

ولقد رأينا ان العلم ، في المرحلة الراهنة من تطوره على الاقل ، لا يملك ان ينفي او ان يثبت . ومهمته كلها تنحصر في تقديم المعلومات . اما الحكم عليها فمسألة تخرج عن نطاق اختصاصه . وهو من هذا المنطلق لم يفتح باب الايمان ولم يوصده . ولعله فاعل ذلك بعد جيل او أجيال . ولكن الكلمة الاخيرة في الوقت الراهن ليست له ، وعلى الاقل في القضية التي بيد أيدينا .

ولقد تمنى عبد الله من كل جوارحه لو انه يجد عند شيخ الحارة نفس ما وجده لدى الشيخ مروان والاستاذ عنتر من «اجابات جاهزة وحاسمة ومريحة» . ولكنه ازاء اصرار مراد عبد القوي على انه «لا شأن له بالشؤون الخاصة» أدرك انه هو وحده المسؤول عن حسم الموقف . ولكن كيف السبيل الى حسم الموقف ما دام الرجلان رهن التوقيف لم تثبت براءتهما ولم تثبت ادانتهما ؟

ان السبيل الوحيد الى حسم الموقف هو التسليم وتوطين النفس على القبول بحقيقة احتمالية لا حقيقة يقينية .

فمن المحتمل بنسبة ٥٠ بالمئة ان يكون الرجلان بريئين ، وبنسبة ٥٠ بالمئة ايضا ان يكونا مذنبين. هذا هو اليقين الوحيد حتى في نظر شيخ الحارة .

هل كتبت على الانسان اذن الحيرة الازلية ؟

الحق ان نسبة الخمسين بالمئة هذه تترك الباب مفتوحا لمواقف ثلاثة :

من شاء فليطلق .

ومن شاء فليعد الى زوجته .

ومن شاء فليبق حائرا أبد الدهر .

والمسألة اولا واخيرا ، وبعد ان قدم كل من القلب والعقل والعلم نصيبه من المعلومات والاجابات ، مسألة هوى :

انحب ؟

أم نكره ؟

أم نحن بين الحب والكراهية حيارى ؟

هذه هي المواقف الممكنة . ولكن ما الموقف الذي اختـــاره نجيب محفوظ ؟

ان الاجابة على هذا السؤال ليست بالعويصة ، او علـــى الاقل لم تعد بالعويصة بعد ان رافقناه في رحلته الطويلة مـــع الله بدءا من **اولاد حارتنا** .

ومن حقنا ههنا ان نفترض ان عبد الله ينطـــق بلسانه .

فكيف حل عبد الله الإشكال ؟

عبد الله : لئن تكن زوجتي مذنبة بنسبة ٥٠ بالمئة فهـــي بريئة في الوقت نفسه بنسبة ٥٠ بالمئة !

مراد عبد القوي : وإذن ؟

عبد الله : ولأني أحبها اكثر من الدنيا نفسها ، ولانه لا بديل عنها الا الجنون او الانتحار ، فإني سأسلم باحتمال البراءة ...

ولو سألنا نجيب محفوظ بعد هذا :

ــ وهل انت سعيد ؟

لأجابنا «بابتسامة لا تخلو من حزن» على لسان عبد اللـــه نفسه :

ــ بنسبة لا تقل عن ٥٠ بالمئة !

كان كافيا ان يختار نجيب محفوظ اســـم **حارة العشاق** عنوانا لقصته حتى يسارع نفر من النقاد الى الافتراض بأنهـــا اعادة تخطيط وتصميم مكثف لـ **أولاد حارتنا** . ولكن أكلما اتى نجيب محفوظ بذكر **الحارة** ، توجب ان يطير الخيال بسرعـــة الصاروخ الى مشروعه الكبير في **اولاد حارتنا** ؟!

الحق ان المتتبع لأدب نجيب محفوظ لا يستطيـــع الا ان يلاحظ ان **الحارة** هي من الثوابت الدائمة في قصصه ورواياته، مثلها مثل «الفندق» و«الخمارة» و«الخلاء» الخ (١) .

واذا لم يكن هناك مفر من الكلام عن اعادة تخطيط لـ «اولاد حارتنا» ، فاننا نرى ان **حكاية بلا بداية ولا نهاية** لا **حارة العشاق** هي التي ينطبق عليها ذلك التقييم .

فـ «حارة العشاق» كما رأينا تطرح المشكلة الميتافيزيقية في كل عريها ، في حين ان الأبعاد الاجتماعية لهذه المشكلة هـــي موضع اهتمام نجيب محفوظ الاول في **أولاد حارتنا** كما فـــي **الطريق و الشحاذ** .

ولئن بدا العلم في **حارة العشاق** وكأنه عاجزا عن تقديم حل ايجابي لكبرى المعضلات الميتافيزيقية، فان هذا العجز لا ينتقص من قدره ، ونجيب محفوظ يخصه في قصصه الاخرى بالـــدور الايجابي الاول (٢) . فكما ان عرفة هو خليفة الانبياء الثلاثـــة

---

١ ـ نأمل ان تتاح لنا في المستقبل امكانية دراسة هـــذه الثوابت ومدلولاتها .

٢ ـ كما في قصة «الرجل الذي فقد ذاكرته مرتين» على سبيل المثال . فـ «الفندق» ، اي «الحارة» ، اي كوكبنا الارضي ، المحاصر بالعنف والجوع والموت ، لا امل له بتفادي الافلاس والانهيار الا اذا استطاع الابن ، الموفد =

العظام ، كذلك فان العلم هو دين العصور الحديثة . ومن هنا على وجه التحديد كان توكيدنا بأن **حكاية بلا بداية ولا نهاية لا حارة العشاق** هي استمرار **أولاد حارتنا** .

وينبغي ان ننوه ، بادىء ذي بدء ، بأن مفهوم العلم عند نجيب محفوظ ليس بذلك المفهوم الضيق الذي يقصر العلم على العلوم الطبيعية والرياضية الدقيقة ، وهو أوسع حتى من المفهوم الذي يدرج في مقولة العلم العلوم الاجتماعية والانسانية. ان العلم عند نجيب محفوظ يتسع ليشمل لا العمليات الرامية الى تغيير الطبيعة فحسب ، بل ايضا العمليات الرامية الى تغيير المجتمع . انه علم وايديولوجيا معا . نيوتن وماركس معا . التكنولوجيا والاشتراكية معا .

وكذلك كان شأن الدين قبل ان يبزغ عصر العلم . فجبل ورفاعة وقاسم في **أولاد حارتنا** ما كانوا محض انبياء ، بل كانوا ايضا رسل الاصلاح الاجتماعي . وعرفة ليس عالما فحسب ، بل هو ايضا ثائر اجتماعي .

وبين الدين والعلم استمرار لا انقطاع ، حتى وان كان اول العهد بينهما تصادما وتناحرا . ألم تضج حارة الجبلاوي في بادىء الامر بالنبا الذي يقول ان عرفة قد قتل الجبلاوي ؟ ولكن الم تعلم الحارة بعد ذلك إن الجبلاوي مات وهو راض عن عرفة؟

ان **حكاية بلا بداية وبلا نهاية** هي اعادة تخطيط لقصة **أولاد حارتنا** ، ولكن من منظور مناقض . انها تعيد هي الاخرى كتابة تاريخ البشرية ، ولكن هذه المرة من وجهة نظر التفسير العلمي ، لا الديني ، للكون وللطبيعة وللتاريخ وللانسان .

= للدراسة في الخارج ، ان يفي بالوعد الذي قطعه على نفسه بأن يعيد بناء الفندق بلا تكاليف تذكر . هذا هو الوعد وهذا هو الامل : العلم .

والانبياء في **حكاية بلا بداية ولا نهاية** ثلاثة كما في **اولاد حارتنا.** ولكنهم ليسوا انبياء الكتب المقدسة ، بل انبيـــاء عصر العلم ، خلفاء عرفة .

الشخصية الرئيسية الاولى في القصة هي شخصية الشيخ محمود الاكرم، آخر خلفاء الاكرم قطب الاسرة الاكرمية ومؤسس الطريقة الصوفية الاكرمية .

والقصة تنفتح على مريدي الاكرمية وهم ينشدون «علـى انغام الناي ودق الدفوف وتحت البيارق» ، متزاحمين حـــول ضريح «مولانا الاكرم» ، وطائفين حول **البيت الكبير** الذي شاده مقاما له ولذريته من الاكرمية .

وبالرغم من واقعية الوصف التي تكاد ههنا ايضا ان تكون فوتوغرافية ، فان الابعاد الرمزية لشخصية مولانا الاكرم تتضح من الاسطر الاولى . فقد وقف احد المريدين يخطب بأهـــل الموكب :

«هنيئا لاهل مصر . هنيئا يا مصر . اختارك الاكرم مأوى ومستقرا لشخصه وذريته . هنيئا لك يوم قصدك قادما مـــن المشارق. على قدميه جاء . يستأنس وحوش البراري . يخترق الجبال ، يسير فوق الماء ، يفجر العيون في الصخر . وهلّ على القاهرة السعيدة كالبدر . وتجول في أطراف متباعدة حتـــى استقر به المقام في هذه البقعة الطاهرة حيث يقوم مسجــــده وضريحه . هنيئا يا مصر ، هنيئا يا حارتنا ، حارة الاكـــرم وموطن ذريته ومريديه . منذ قرون خلت انبثق في هذا المكان نور ما زال يجذب اليه فراشات من طالبي الهدايـة والغفران ، وترك لكم المسجد والبيت الكبير . البيت الكبير مركز الـــروح والنور والهدى تدور حوله كواكب الاكرمية ما بين سوريـــا والعراق وتركيا ولبنان وفلسطين والجزيرة والهنـــد وفارس وتونس والجزائر ومراكش وطرابلس . بيت هو القلب الخفاق لعالم روحي شامل. يا سيدي الاكرم تحية وسلاما . يا من جبت

الاقطار كلها واخترتَ لمقامك هذا القطر ، هذه العاصمة ، هـذه الحارة ، هذا البيت . يا صانع الكرامات تحية وسلاما» .

ان هذا الدعاء ، الذي اثبتناه بحرفه ـ على طوله ـ يقطع دابر كل شك ، على الاقل للوهلة الاولى : فالاكرم هنا هــو الانسان الاول على الارض ، ادهم حارة الجبلاوي ، آدم سفـر التكوين والعلاقة اللفظية بين أكرم وأدهم تكاد ان تكون صريحة سافرة .

ولكن رمزية الدعاء لا تقف عند هذه الحدود . ولو وقفت عندها ، لكان من حقنا ان نبادر سراعا الى القــول بأن نجيب محفوظ لا يفعل من شيء سوى انه يكرر نفسه . والحال ان براعة محفوظ في الترميز والتورية تكمن في ذلك على وجــه التحديد : في ايهامنا بأنه يكرر نفسه ليس إلا . ففـــي الوقت الذي تذهب فيه أفهامنا ، على ضوء تجربتنا مع **اولاد حارتنا** ، الى ان نجيب محفوظ على وشك ان يعيد للمرة الثانية قــراءة سفر التكوين من منظور الموروث الدينـــي ، تكون الرمزيـــة المزدوجة (١) قد ارست المداميك لاعادة نظر جذرية وجريئة في التصور الديني للتاريخ ـ وفي سفــر التكوين على وجــه الخصوص ـ كما أورثتنا اياه الكتب المقدسة .

ان صورة آدم ـ او أدهم ـ هي اول ما يحضر الى ذهننـــا بفعل التشابه اللفظي مع اسم الاكرم ، وبحكم المأثور المتكون عنه: «على قدميه جاء . يستأنس وحوش البراري . يخترق الجبال، يسير فوق الماء ، يفجر العيون من الصخر» . ولكن سرعان مــا يحضر ايضا الى الذهن سؤال : اذا كان الاكرم هو فعلا آدم ،

---

١ ـ او المتناضدة او المتراكمة : فالرمز بدلا من ان يحيلنا الى واقع ما ، يرجعنا الى رمز آخر هو له بمثابة الحامل .

فهل آدم هو فعلا ، وكما ينص التصور الديني للعالم ، الانسان الاول على الارض ؟

واذا كان آدم قد اختار حقا الارض مقاما ، فهل فعل ذلك لانها حقا ، وكما ينص التصور الديني للعالم ، مركز الكون ؟

قبل الشروع بأي تحليل ، لا بد ان ناخذ بعين الاعتبار الواقعة التالية : فكما ان مهابة التراث الديني هي التي ألجأت نجيب محفوظ في **اولاد حارتنا** الى ترجمة لغة الدين والروح الى لغة دنيا وعلم ، فان جرأة مشروعه في **حكاية بلا بداية ولا نهاية** ــ وهو طي صفحة التصور الديني للعالم وتكريس التصور العلمي للعالم بديلا له ووريثا ــ هي التي تلجئه الى سلوك النهج عينه ولكن بالاتجاه المعاكس : فهنا تنقلب لغة علم الطبيعة والفلك والجغرافيا والانتروبولوجيا الى لغة روحية مشبعة بالمدلولات الدينية . فحين يقول الدعاء عن **البيت الكبير** ، مثلا ، انه «مركز الروح والنور والهدى» وانه «القلب الخفاق لعالم روحي شامل» ، فلا بد ان نستشف وراء الرمز رمزا ، وخلف التورية تورية ، وأن نقرأ الكلمات قراءة مزدوجة ، قافزين باستمرار من لغة الى اخرى . وبتعبير آخر ، لا بد ان نقوم بعملية ترجمة . فبموجب التصور الديني للعالم ، كانت الارض هي مركز الكون، وكان كل ما عداها من الاجرام السماوية والكواكب الاخرى تابعا لها ، يدور من حولها . وفي الوقت الذي يرمز فيه **البيت الكبير** الى الارض ، فان وصفه بأنه «مركز النور» لا يعود يحتاج الى تأويل رمزي . فنحن فقط امام كناية ، وامام كناية مماثلة عند وصفه بأنه «قلب خفاق» . فمركزية القلب بالنسبة الى الجسم تكني عن مركزية الارض بالنسبة الى الكون . اما وصف العالم ، الذي يقوم له **البيت الكبير** مقام القلب الخفاق ، بأنه «عالم روحي شامل»، فلا يجوز ان يضلنا عن سواء السبيل. اذ حسبنا ان نترجم «روحي» الى «مادي» ــ والطباق صيغة من صيغ التورية ــ حتى يستقيم المعنى المجازي من دون ان يختل

اصلا المعنى الحقيقي . فـ «العالم الشامل» الذي يتحدث عنه الدعاء يصح وصفه بأنه «مادي» لان المقصود به فعلا هو العالم، اي الكون ، كما يصح وصفه بأنه «روحي» لان جملة الافكار المرتبطة بالتصور الديني للعالم تشكل بالفعل «عالما شاملا» .

وباعتماد منهج القراءة المزدوجة ، تأخذ معنى مغايرا تماما الجملة التي تتحدث عن مدى الانتشار الجغرافي للطريقة الصوفية الاكرمية: «البيت الكبير ، مركز الروح والنور والهدى، تدور حوله كواكب الاكرمية ما بين سوريا والعراق وتركيا ولبنان وفلسطين والجزيرة ...» . ف «النور» هنا له معنى فيزيائي بحت وان غير مباشر، معان وقوعه بين لفظتي «الروح.. والهدى» يعطيه معنى دينيا مباشرا . وكذلك شأن تعبير «كواكب الاكرمية» . ف«الكواكب» هنا ، وخلافا لما يتبادر الى الذهن للوهلة الاولى ، هي فعلا وحقا كواكب وأجرام سماوية . وفي هذه الحال ، فان أسماء البلدان كسوريا والعراق وتركيا ، الخ، تمسي مجرد كنايات عن الشمس وسهيل ونجم القطب والمريخ والثريا والمشتري ، الخ .

انها ، كما نرى ، طريقة ملتوية للغاية في التعبير عن نظرية مركزية الارض للكون كما كان يتبناها التصور الديني للعالم . وهذا التعقيد والتداخل والتراكب في الرموز والتوريات والكنايات وما يمكن ان نسميه بلا مبالغة بـ «المقالب» المجازية لا يدع مجالا للشك في ان المهمة التي يأخذها نجيب محفوظ على عاتقه في **حكاية بلا بداية ولا نهاية** شائكة للغاية ، وفي ان السؤال الذي يطرحه ــ ويجد له الحل ــ في هذه القصة هو في منتهى الجرأة والخطورة ويمس مسا مباشرا نقطة حرجة وحساسة في الإشكالية اللاهوتية لمؤلف **أولاد حارتنا** ومهندسها : هل الله رهين التصور الديني للعالم ؟ وهل انهيار هذا التصور في العصور الحديثة يعني نهاية الله ؟

ان مجرد طرح سؤال بهذه الخطورة كان لا بد ان يترجم ،

على صعيد الاخراج الدرامي ، بتصوير «حارة الاكرم» وهي في وضع أزمة عاصفة . وبالفعل ، آن الحارة ، ومعهـــا الاسرة والطريقة الاكرمية ، تعيش لحظة مواجهة تاريخية بين الشيـخ محمود الاكرم ، آخر خلفاء الاكرم والامين على تقاليـــد الاسرة الاكرمية ، وبين الفتى علي عويس ، زعيم الجيل الجديد الـذي يحب «الحقيقة اكثر من اي شيء آخر في الوجود» .

ولا تكاد تكون بنا حاجة الى ان نقول ان المواجهة بين الشيخ محمود الاكرم والفتى علي عويس تحمل جميع قسَمات المواجهة التاريخية بين الدين والعلم . فالشيخ محمود ، ومعه التصـور الديني للعالم ، هو الذي يقف في قفص الاتهام، بينما يعتلي علي عويس ، ومن ورائه التصور العلمي للعالم ، منبر الادعـــاء . وليس من قبيل الصدفة بالطبع ان يكـــون علي عويس **فتى** ، ومحمود الاكرم **شيخا** . فهذا الاخير هو بالفعل شيخ طريقة . وهو مجازا شيخ دين . وهو اخيرا شيخ بالمعنى الحرفي للكلمة. فالتصور الديني للعالم قد دبت فيه الشيخوخة ، وفقد القدرة ــ مثله مثل الشرايين حين تصاب بالتيبس ــ على الاستجابـة لمتطلبات العصر الذي لا سنّة له غير التغير (١) .

---

١ ــ «قال علي عويس :

ــ الدنيا تتغير بلا توقف ولا رحمة يا مولانا .

فرد عليه محمود الاكرم :

ــ ولكن الحقائق باقية خالدة .

ــ التغير هو الشيء الوحيد الخالد يا مولانا !

ــ التغير ؟

ــ التغير في كل يوم ، في كل ساعة ، في كل لحظة .

ــ اراك تتعلق بظاهر كاذب خداع .

ــ معذرة يا سيدي ، فالظاهر الكاذب هو الجمود» .

وقد اخذت المواجهة بين ممثلي كلا التصورين شكل نشرة سرية كتبها «اللئام» من ابناء الجيل الجديد «بمداد حقد اسود» ووزعوها على نطاق واسع على «جميع من يعرف القراءة» في حارة الاكرمية ؛ نشرة تحمل كعنوان «ماذا تعرف عن الاكرمية»، حكم عليها الشيخ محمود بأنها محض افتراءات غرضها التشهير به وبالمريدين وبالاسرة الاكرمية، ولكن مؤلفيها وضعوا لها ، «كما يليق بالكتب العلمية»، مقدمة نفوا فيها ان يكون غرضهم التشهير والابتزاز وقالوا بالحرف الواحد : «الحقيقة هي الحقيقة ، لا تحتاج الى اسباب تبرر نشرها على الناس ، علينا ان نتقبلها دون تحريف وبشاعة تليق بالبشر وإن تغير اسلوب حياتنا ليتوافق معها ، فنحن لا ننشرها بقصد الاساءة الى احد ولكن إيشارا للحق ونشدانا للخير» . وقد قسم «الاوغاد» النشرة الى ثلاثة ابواب : الباب الاول عن **البيت الكبير** زعموا فيه انه «ما هو إلا فرع من فروع لا حصر لها من بيوت الطريقة ، لا انه الاصل الذي انبثق منه النور» ؛ والباب الثاني عن «الاكرم صاحب الطريقة الاول» انكروا فيه ان يكون «الاكرم جاء مصر بين يدي سلسلة من الكرامات» وادعوا انه جاءها «هاربا عقب ارتكاب جريمة شنعاء» وأن «اسمه الذي عرف به هنا وهو الاكرم محور عما شهر به في الخارج وهو المجرم» ؛ والباب الثالث عن «السلوك في الاسرة الاكرمية» ضمنوه ، على حد ما يتصور الشيخ محمود الاكرم ، «أكاذيب» تتلذذ «بتمزيق الاعراض» وتنم عن «دعارة» القائلين بها و«سفالتهم» و«مجونهم» و«انحرافهم» الجنسي .

وكما ان رد الفعل الاول للدين في مواجهته للحقائق التي راح العلم الفتي يزيح النقاب عنها تباعا كان رد فعل عنف واستعداء لسلطان التقاليد وآلة الدولة على العلماء (ومصير جيوردانو برونو ـ الذي كاد ان يشاركه فيه كوبرنكس ـ لا يحتاج الى تذكير) ، كذلك ما كاد الشيخ محمود ينتهي من

قراءة النشرة حتى رماها ارضا وانتتر واقفا وعيناه تقدحـــان شررا : ــ فلتتوقف الارض عن الدوران او فلتـــــدر في عكس اتجاهها .

أجل ، لن يكون هناك من رد ، كما حدث حقا في التاريخ ، الا محاكم التفتيش :

ــ الهذيان لغة دارجة ، درجة الحرارة الطبيعية هي درجة الموت ، التاريخ قتل غيلة ، المسك سم زعاف .

ولكن الشيخ عمار ، الساعد الايمن للشيخ محمود و«الثعلب الماكر» ، يأخذ على عاتقه ان يمثل دور الحكيم :

ــ الحكمة. الحكمة. لنتلق الضربة بعقل ولندبر بعقل آخر.

فثمة رجل في هذا المأزق لا غنى عنه : الشيـــــخ تغلب الصناديقي . فهو إمام عظيم من ائمة الطريقة ، منظّر كبير مـــن منظّريها ، ولن يتردد في الدفاع عنها بعلمه الفزير .

ولكن هل الطريقة هي المهددة فعلا حتى يدافع عنها ؟ أم ان الأعاصير لا تهدد الا بأن تقتلع ائمتها الذين خانوا رسالتهـــــا والذين انساهم رغد القصور ان«الحياة في الحارة معاناة أليمة»؟

وهل النشرة هي التي تهدد حقا بتقويض الطريقـــة ؟ أم ان الطريقة تقوضت اصلا على ايدي سدنتها ؟

والشيخ تغلب الصناديقي ، «رجل القلم ومؤلف أشعـــار الاكرمية وفلسفتها والعالم بأسرارها» ، قد آلى علـــى نفسه ، منذ ان هجر **البيت الكبير** وقطع اسبابه بالمتسلطين عليـــه ، الا يجهر بغير الحقيقة مهما تكن مرة . والحقيقة المرة ان «الطريقة لم يعد لها اهل ، ولم يبق منها الا الاغاني والأذكار والنـــذور والعمارات !» . والحقيقة المرة ان الشيخ محمود لم يستدعـــه للدفاع عن روح الطريقة وجوهرها ، بل عن طقوسها وامتيازاته:

ــ انت لم تذكرني الا حين هبت الاعاصير على مجدك !

ــ بل على الطريقة يا شيخ تغلب ...

ــ الطريقة ؟... لقد تقوضت على يديك .

ان الصورة المشرقة التي يرسمها نجيب محفوظ للشيخ تغلب الصناديقي تطابق صورة **المثقف العضوي** كما يحدده انطونيو غرامشي . وهذه الصورة تسترعي الانتباه من خلال تنافرها الصارخ مع صورة الشيخ عمار . ففي حين ان هذا الاخير يمثل **المثقف التقليدي** الذي ربط مصيره بمصير طبقات زائلة (١) ووضع علمه وقلمه في خدمتها ولم يتنكب عن تزوير الحقيقة بالذات لصون مصالح تلك الطبقات (٢) ، نجد ان الشيخ تغلب الصناديقي بصفته مثقفا عضويا ، اي أصيل الانتماء الى الحارة و«مهاجرا» في الوقت نفسه عن طبقتها الحاكمة الآفلة ، قد جعل همه الوحيد الدفاع عن مصالح الحقيقة حتى ولو اضطره ذلك الى سلوك سبيل المنفى (٣) .

لقد استقدم الشيخ محمود الشيخ تغلب الصناديقي كآخر سهم في الجعبة على أمل ان يتصدى لـ «الرياح المليئة بالاوبئة التي انقضت على الطريقة تروم اقتلاعها من جذورها المقدسة». ولكن الشيخ تغلب يفاجئه بحقيقة مرة جديدة :

---

١ ــ علما بأن نجيب محفوظ يتحدث عن صراع «أجيال» لا «طبقات» .

٢ ــ يقول الشيخ محمود للشيخ عمار ، وهو يستنفره ــ وعلمه وقلمه ــ للدفاع عن المواقع المهددة للطريقة : «انك ثعلب ماكر ، واني لفي حاجة الى كل نقطة مكر في صدرك ... الي بجميع الشياطين التي تقيم في هذا البيت واستعر من تستطيع من شياطين الحي كله ، كفاك خداعا بالفضائل الكاذبة ، واستخرج من قبور قلبك الرذائل الرائعة المخلوقة اصلا للكفاح والنصر» .

٣ ــ يقول الشيخ محمود للشيخ تغلب :

ــ قاطعتنا ونبذت عشرتنا يا شيخ تغلب .

فيجيبه :

ــ ذلك اني اضن بوقتي على غير الاجتهاد .

قال الشيخ محمود :

ــ اقرات نفثات الابالسة المدسوسة في النشرة ؟

فهز العجوز راسه وقال :

ــ تريد أن أرد عليها ؟

ــ هذا ما أطالبك به ..

ــ لا رد عندي عليها !

ــ ماذا ؟

ندت عن الشيخ محمود صيحة توجع وقطب غاضبا ، ولكن الآخر قال بهدوء :

ــ ليس عندي ما أرد به عليها ! .

ــ ماذا تعني يا شيخ تغلب ؟

ــ اعني ما قلت حرفيا .

ــ أتعني ان ما جاء بها حق ؟

ــ أجل يا مولاي !

ولم تكن هذه المفاجأة الوحيدة في جعبة الشيخ تغلب ولا الارهب وقعا . فالقنبلة الحقيقية ستنفجر حين سيعلن ان الذين حرروا النشرة «لم يختلقوا أكاذيب ولكنهم عرفوا السبيل الى مخطوطات قديمة بدار الكتب» ، وأن هذه المخطوطات قد «وضعها مريدون من أصدق المريدين القدامى» . وهؤلاء المريدون الصادقون القدامى ثلاثة : الشيخ ابو كبير «وقد عكف على دراسة بيوت الاكرمية» ، والشيخ الدرملي «وكان حجة في معرفة رجال الاكرمية» ، والشيخ ابو العلاء وكان اختصاصيا في «سلوك رجال الاسرة الاكرمية» وقد ولع بوجه خاص بـ «تأريخ اهواء القلوب» .

ماذا كانت «نظريات» هؤلاء المريدين القدامى الثلاثة المحفوظة في «مخطوطات قديمة بدار الكتب» ؟

أولهم ، الشيخ ابو كبير ، نفى ، كما ورد في النشرة ، ان

يكون البيت الاكرمي هو «الاصل والمركز» و«الاصل الذي انبثق منه النور» ، لكن عنايته «بدراسة الاكرمية» قادته الى التجوال في «الشام وشمال افريقيا وايران والهند» ثم «قرر الحقيقة التي لا ضير منها وهي ان البيت الكبير ما هو الا مقام أنشأه الاكرم ، بيت من مئات البيوت التي سبقته الى الطريقة ، بل هو آخر بيت وصل اليه النور والهدى» .

وحين احتد الشيخ محمود وقال حانقا :

« ـ هذيان ما يقول ، وجدي هو مؤسس الطريقة وبيته هو الاصل والمركز .

أجابه الشيخ تغلب بهدوء العلماء :

ـ انك غاضب للكبرياء لا للطريقة ... لم يقصد الحط من بيتكم ، كلا .. وكم صادف في تجواله من بيوت ظن اصحابها انهم الاصل والمركز .. ولكنك تعاني لانك لم توجه الى الطريق قلبك الذي لم يشغله الا الجاه . جاه وريث البيت الكبير .

ـ ود أن نضيع في زحمة لانهائية !

ـ النور لا يضيع ابدا ولا يفنى ..

قطب الشيخ محمود وقال :

ـ سوف يحتاج الناس لرؤيتنا الى مجهر كبير !

ـ المهم أن يروا شيئا يستحق الرؤية ..» .

ان هذا الحوار ، المشحون الى درجة التوتر المطلق بالرموز الدينية على الطريقة الصوفية ، قابل للترجمة الفورية الى لغة مادية وعلمية خالصة اذا ما استطعنا ان ندرك ان كوبرنيكس بلحمه وعظمه هو الذي يختفي وراء شخصية الشيخ ابو كبير . فكوبرنيكس ، بنظريته عن دوران الارض حول الشمس، كان اول من دحض نظرية مركزية الارض للكون ، وهي النظرية التي كانت تقول بأن الارض ثابتة ، وانها مركز الكون ، وان الشمس والقمر والكواكب والنجوم هي التي تدور من حولها . وقد كانت هذه النظرية تحظى بتأييد التصور الديني للعالم لتوافقها مع ما

جاء في سفر التكوين عن خلق السماوات والارض ، ولإيلائها الارض مكانة متميزة في الكون هي عين تلك التي اختصها بها الله في قصة خلق العالم .

اما ثاني المريدين الصادقين القدامى ، الشيخ الدرملي ، فلا يصعب علينا ان نكتشف تحت جبته وعمامته تشارلز داروين ، واضع النظرية العلمية ــ والثورية ــ عن أصل الإنسان (الاكرم القطب الاول ، ومؤسس الاسرة الاكرمية) .

يهتف الشيخ محمود وقد «تلقى الطعنة في صميم قلبه» :

ــ يا للفظاعة يا شيخ تغلب ، ألم تعد تؤمن بأن الاكرم جاء مصر بين يدي سلسلة من الكرامات ؟ أتصدق ان القطب الاعظم جاء مصر هاربا عقب ارتكاب جريمة شنعاء ؟ وان اسمه الذي عرف به هنا ، وهو الاكرم ، محور عما شهر به في الخارج وهو المجرم ؟ وأنه جاء الحارة أشعث أغبر عاري الجسد لا يختلف شيئا عن الحيوان الاعجم ؟ أتصدق ذلك عن مولاك الاكرم ؟

فيتمتم الشيخ تغلب الصناديقي بهدوء العلماء :

ــ ما أجمل الهدى بعد الضلال ، ما اجمل الاستقرار بعد التشرد ، ما أجمل الجلال بعد البهيمية ، انه مولاي الاكرم الذي بلغ بجده المراد وكفى !

هنا ايضا تردنا اللغة الصوفية ، المشحونة والمتوترة ، الى لغة الوقائع العلمية الموضوعية والباردة . فخلافا للتصور الديني عن قصة خلق الانسان في سياق من المعجزات الكبرى (سلسلة من الكرامات) ، نفى داروين ان يكون الانسان قد رأى النور مكتملا : فهو على العكس قد مر بمختلف أطوار الحيوانية ، ولم يكتمل قواما وجسما وعقلا الا بعد ملايين لانهائية من سني التطور . والانسان الاول ، الذي يحلو للتصور الديني عن العالم ان يؤكد انه خلق على صورة الله ، لم يكن في الحقيقة الا انسانا بدائيا («أشعث أغبر عاري الجسد») اقرب الى الحيوان

منه الى الانسان المعروف لدينا اليوم ((لا يختلف شيئا عن الحيوان الاعجم)) . بل ان اسمه بالذات يشير الى «وضاعة» أصله الحيواني (**فالانسان** لفظاً قرين **الحيوان** ، وكذلك الاكرم = المجرم) . واذا كان ثمة من معجزة حقيقية ، فليست ان يكون الانسان قد حقق ما حققه وهو مكتمل الخلق والتكوين جسميا وعقليا ، وانما ان يكون قد حقق ما حققه بالرغم من ان أصله قرد ((ما أجمل الهدى والاستقرار والجلال بعد الضلال والتشرد والبهيمية (١) !)) .

وما يقال عن الانسان يصح ان يقال عن الارض . فليست المعجزة ان تكون هي «الاصل والمركز» ، وانما ان تكون ، رغم ضياعها في زحمة الكون اللانهائية التي لا ترى معها الا بالمجهر، قد تميزت وتفردت وصار لديها «شيء يستحق الرؤية» بفضل كفاح البشر من سكانها وجهودهم المتواصلة في سبيل المزيد من التطور على الدوام . أجل ، ذلك هو السر والمعجزة والموضوع الحقيقي للكبرياء !

ويبقى الشيخ ابو العلاء الذي اليه «يرجع ما ورد في النشرة» عن «السلوك في الاسرة الاكرمية» . وحين يقدح به الشيخ محمود على انه «داعر ماجن سافل» ، وأن «كلماته تقطع بأنه قواد او منحرف» ، وأنه في حقيقته «وحش يتلذذ بتمزيق الأعراض» ، وعلى وجه التحديد اعراض الاسرة الاكرمية التي هي «أسرة طاهرة مقدسة» ، فان رائحة الجنس التي تفوح من

---

١ - على هذه المعجزة كان نجيب محفوظ قد ختم روايته «ثرثرة فوق النيل» :

«أصل المتاعب مهارة قرد . هبط من جنة القرود الى ارض الغابة ، فقبض على غصن شجرة بيد وعلى حجر بيد ، وتقدم في حذر وهو يمد بصره الى طريق لا نهاية له» .

هذه الاوصاف والشتائم تقطع ، بما لا يدع مجالا للشك ، بأن ثالث المريدين الصادقين القدامى ، الشيخ ابو العلاء ، ما هو الا إهاب تنكري لسيغموند فرويد. ولئن يكن أنصار التصور الديني للعالم وللانسان قد ثارت ثائرتهم في حينه على فرويد ورأوا في نظرياته عن الجنس افتئاتا على الانسان وتلويثا للطبيعة «الطاهرة» و«المقدسة» التي جبله الله عليها باعتباره «صورة» عنه ، فليس أسهل من الرد على هؤلاء المشنعين على فرويد بمثل ما رد به الشيخ تغلب على الشيخ محمود :

ـ كان يؤمن بأن الطريقة حب خالص فتابع الحب في جميع أحواله ! كان الحب همه الاول والاخير ، وآمن بأن في قلب كل انسان بذرة حب إلهية ، مهما يكن من مساراتها فهي تتجه في النهاية الى الحبيب الاوحد !

أجل ، ليس المطلوب الا ان نضع كلمة «الحب» بدل كلمة «الجنس» ، حتى يتحول فرويد من «قواد منحرف» الى «مريد صادق» حرر الاسرة الاكرمية من عقدة الاثم والدنس والخطيئة الاولى !

بديهي ان مشهد كوبرنيكس وداروين وفرويد ، وقد ألبسوا عمائم الصوفية وانطقوا بلغتها وسموا بأسماء مريديها ، مشهد لا يخلو من جراة وإقدام على صعيد الترميز بالذات . فالصوفية في الاساس ، وبصفة عامة ، مذهب دعة وعطالة ولاحركة ، بينما كانت مذاهب لامركزية الارض للكون ونظرية النشوء والارتقاء وفرضية مبدأ اللذة واللاشعور مذاهب ثورية الى حد كبير قوبلت، بادىء الامر على الاقل ، بالعداء والرفض والادانة من قبل السلطات الكنسية والازهرية في مغارب الارض كما في مشارقها .

ولكن بالنظر الى ان الصوفية تراث شرقي في المقام الاول، فان جراة نجيب محفوظ الرمزية في **حكاية بلا بداية ولا نهاية**

تنطوي على ناحية ايجابية اكيدة . ففي الشرق الراهن ، الذي لا يسمح بتسلل المذاهب الثورية الجذرية الا مثلمة ، لا يمكن ايضا ان تدور المعارك المناوئة للتصور الديني للعالم الا مخففة الوقع . وبفضل الصوفية ولغتها واصطلاحاتها امكن لنجيب محفوظ ان يحيي في **حكاية بلا بداية ولا نهاية** حفلة تنكرية كبرى ، بريئة في الظاهر ، وثورية (او «داعرة» بلغة الشيخ محمود) من تحت الثياب .

وقد يكون من حقنا ان نعترض بأن **حكاية بلا بداية ولا نهاية،** مثلها مثل اي حفلة تنكرية اخرى ، لا يمكن ان يتمتع برقصاتها وأن يفهم لغتها سوى نخبة مصطفاة . وهذه بالاساس ضريبة كل رمزية . ولكن التفسير الاخير للرمزية ينبغي البحث عنه على صعيد العلاقات الاجتماعية . فالرمزية هي اللغة التي تفرض نفسها في مجتمع لا يجرؤ بعد على التعامل مع الحقائق بعريها الثوري . وخلافا لما يفترضه بليخانوف (١) ، فان الرمزية ليست على الدوام شهادة على فقر حال الفن ، بل قد تكون ايضا شهادة على فقر حال المجتمع. وعلى وجه التحديد لان الرمزية تقود الى مملكة التجريد وتقضي على الصور الفنية بالشحوب وفاقة الدم ، فانه من الواجب ان نفهم ان الفنان قد لا يركب مركبها الوعر الا مكرها وعلى حساب فنه بالذات . بالطبع ، ليس هذا قانونا عاما ، لكن في مثال نجيب محفوظ تبدو لنا الرمزية ، وتحديدا في الاعمال الفنية التي تتمحور حول علاقة الانسان بالله (وكذلك الفرد بالدولة) ، وكأنها البديل الفقير ولكن الإلزامي **لفن واقعي فائق الفنى .**

ثورية كوبرنيكس وداروين وفرويد هي اذن ثورية مثلمة

---

١ ـ جورج بليخانوف : «الفن والتصور المادي للتاريخ» ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٧ ، ص ١٧٥ .

ومخففة الوقع ، وهذا على وجه التحديد من حيث انهم لا يؤدون ادوارهم الا تحت الاسماء المستعارة للشيوخ ابي كبير والدرملي وأبي العلاء. غير ان ما يخسره نجيب محفوظ في ميزان الشكل، يعرف كيف يعوض عنه في ميزان المضمون . فعلـــي عويس ، تلميذ المريدين الثلاثة ومتابعهم ، لا يريد ان يغير تصور العالـم فحسب ، بل العالم نفسه كذلك . وهو بذلك يثبت انه تلميـذ مجتهد لماركس ايضا ، وان لم يأت له ذكر او تلميح في القصة. ولهذا بالتحديد تبدو لغة علي عويس (١) ، بالرغم من مقدماتهـا النظرية الرمزية ، ثورية حادة ، بل مدببة ، في استنتاجاتهـا العملية الواقعية . فالوفد الذي يذهب برئاستـــه لمقابلة ــ او بالاحرى لمواجهة ــ الشيخ محمود، يتقدم بمطالب تتعلق بالموقف من الانسان والمجتمع ، لا من الطبيعة وأصل الكون فحسب . وبعبارة اخرى ، ان مرافعة علي عويس تأخذ شكـــــل ادانة لا للخرافات فحسب ، بل كذلك للظلم الاجتماعي والطبقي .

فقد قدم وفد الشبان على الشيخ محمود ، وهم في ثيـاب «لا يخفى على عين قدمها» . وقد كان مشهدهم في قصره ينطق «بحدة التناقض بين رثاثتهم وفخامة الجدران المحلاة بالابسطة المزركشة والحُصُر الملونة وزينة الأرابيسك ، والسقف الابيض العالي تتدلى من وسطه النجفة البرونزية، ومن اركانه الفوانيس الاندلسية» . ومع انهم قدموا انفسهم على انهم مجرد «طـلاب حقيقة» ، الا انهم وضعوا في راس مطالبهم التغيير الاجتماعي .

سألهم الشيخ محمود :

ــ ماذا تأخذون على طريقتنا ؟

---

١ ــ وليس من قبيل الصدفة بالطبع ان يكون من اصل وضيع فقير وابنا لسواق عربة كارو .

فقال احدهم :

ـ الحياة في حارتنا معاناة اليمة ..

وقال آخر :

ـ انها صحراء مخيفة مليئة بالاكاذيب ..

وقال علي عويس :

ـ صغار المريدين ، وهم الكثرة الغالبة ، حفاة خانعون ..

فقال الشيخ بعجلة :

ـ انهم راضون ، والرضا مطلب روحي مضنون به على غير اهله .

ـ لا يملكون حيال قوتكم الا الرضا وإلا ماتوا جوعا ، ولكن لا شك انهم يمرون حيارى بهذا البيت الكبير الغارق في الرفاهية ..

قال الشيخ بحدة لاول مرة :

ـ بيت آبائي واجدادي مذ اقامه القطب الاول .

فقال الشاب بجراة جنونية :

ـ أقيم بأموال المريدين كسائر العمارات الشاهقة في وسط المدينة ..

فتمتم الشيخ ممتعضا :

ـ ترى ماذا يرجى مني ؟

فقال علي عويس :

ـ ان تمزق ستار الاكاذيب الذي يغشى حارتنا .

ـ الاكاذيب ؟! .

ـ كالتناقض بين شعار الزهد والممارسة الفعلية للتسلط واقتناء العمارات الشاهقة !

وقال آخر :

ـ والكف عن التغني بالخرافات .

ـ الخرافات ؟!

فقال علي عويس :

ـ معذرة عن صراحتنا ولكننا بتنا نكره الكذب حتى الموت .

الصراع اذن صراع مصالح بقدر ما هو صراع مبادىء . بل انه بالنسبة الى الشيخ محمود صراع مصالح قبل ان يكون صراع مبادىء . فهو يلخص للشيخ عمار مطالب علي عويس وجماعته بجملة واحدة :

ـ يريدون سلب أموالنا والقضاء على نفوذنا وإهدار قيمنا !

والواقع ان حرصه على «القيم» انما هو مستمد من حرصه على «الامتيازات» المتكدسة له بحماية تلك القيم . وهذا مـــا تجاهره به معلمة المدرسة زينب ، شقيقة علي عويس ، بعبارة صريحة لا تحتمل تأويلين :

ـ لم يغضبك كفره المزعوم ولكن أغضبك رأيه في عماراتك الشاهقة في وسط المدينة ..

ومع ان الشيخ محمود يحاول في البدء ان ينفي ان يكــون الامر كذلك ، متخذا من ايديولوجيا الزهد ستارا لتمويه واقع الغنى الفاحش ، مؤكدا ان «أتفه ما في الحياة زينة المال الكاذبة وما يتبعها من شهوات» ، الا انه لا يلبث أن يقر ، حينما ضيق عليه الخناق ، بأن «ليست المسألة محض عبادة للحقيقة ، ولكنها ذات عواقب محتومة ، فلا ضمان للنذور بعــد الاخذ بهـــــا (بالحقيقة) ، وسرعان ما ترتفع الاصوات مطالبة ايانا بالامــوال المكدسة وريع العمارات !» .

وبديهي ان هذه «العمارات الشاهقة» ، التي يتردد ذكرها مرارا وتكرارا ، قابلة هي الاخرى للتأويل الرمزي : فهي قــد تعني فعلا «عمارات شاهقة» كإشارة الى ان معظم رجال الدين عاشوا في جميع عصور التاريخ ـ رغم كــل دعاوى الزهـــــد والتجرد ـ عيشة قصور اكثر منها عيشة أكواخ ؛ ولكنها قــد تشير ايضا الى البذخ المنقطع النظير الذي شيدت به اماكـــن العبادة من كنائس وبيع وجوامع ، مع ان المريديـــن (المؤمنين)

المترددين عليها «وهم الكثرة الغالبة ، حفاة خانعون» .

اذن ، وما دامت «الحياة في الحارة معاناة أليمة» ، فان البذخ في بيوت الله ومن قبل رجال الله على حد سواء أمر غير مقبول ، ولن تكون له من عاقبة غير تقوض الطريقة وانفصال اهلها عنها .

ولقد قالها الشيخ تغلب الصناديقي بصراحة وصدق ومحبة للشيخ محمود :

ـ معذرة يا بني فإني لا أنطق الا عن صدق ، لو انك مارست حياة الطريق الشاقة الطاهرة لما تعرض لك احد بسوء او لما باليت بما يتعرضون لك به .

الشيخ محمود يقف اذن امام خيارين لا ثالث لهما : «فإما الدعارة وإما القداسة» . ذلك ان مهمة رجال الدين ، وعلى الاخص بعد ان ناب عنه العلم في تفسير حقائق الوجود ، لا يمكن ان تكون سوى «مهمة قديس» . فالقديس هو وحده الذي «لا يكترث للأوحال» . أما الاصرار على «ألدعارة» ، أي على تكديس الاموال وجباية ريع العمارات الشاهقة والانشغال بأطايب الدنيا عن «الطريق» و«الاجتهاد» ، فهذا يعني الانتحار ، بل ما هو اكثر من الانتحار : تمكين «جيل الأبالسة المتمردين» ، اي العلم والعلماء وجماعة علي عويس ، من تصوير القيّمين على «الطريقة» بصورة «النفايات السامة التي يجب التخلص منها بأسرع ما يمكن صونا للصحة العامة» .

هل هذا معناه ان العلم يملك ، لمجرد انه علم ، مناعة مطلقة ضد الانحراف عن «الطريق» ، وانه بمنجى نهائي من نفس المآخذ التي يأخذها على الدين ورجاله ؟ الحق ان نجيب محفوظ يطلق هنا صيحة تحذير ، ولو جانبية . يطلقها بلسان الشيخ تغلب الصناديقي الذي يلخص على النحو التالي الحوار الذي دار بينه وبين علي عويس وجماعته :

ـ لقد زاروني، حدثوني عن العلم الذي يؤمنون به فحدثتهم

عن العلم الذي أؤمن به ، تبادلنا الاحترام طيلة الوقت ، قلت ان العالم من رجال الله الا اذا اراد ان يكون من رجال الشيطان ، قالوا ليس من اهل الطريق من يلج بالفسق والجشع ، فقلت ولا من العلماء من يهب قدراته للدمار !

نقول انها صيحة تحذير **جانبية** لان المحاكمة التي تجرى في **حكاية بلا بداية ولا نهاية** انما هي في الاساس محاكمة الشيخ محمود ، ومن ورائه التصور الديني للعالم ، لا محاكمة علي عويس والتصور الذي يمثله . وبديهي ان مسألية الله عند نجيب محفوظ كما تقدم تحليلها لا تسمح لنا بأن نتوقع ان تتمخض تلك المحاكمة عن قرار ادانة لا استئناف فيه . فما يحلم به نجيب محفوظ وما يخطط ليس ان يلقى الدين مصرعه على يد العلم ، بل ان يصل معه الى نقطة تفاهم لما فيه خير «الحارة» ، وانطلاقا من ان العلم بالذات «ما هو الا لغة ايمان جديدة» .

لقد ابى الشيخ محمود في البدء ان يقارع الحجة بالحجة ، ولجأ ، كما لجأ من قبله الدين ، الى محاكم التفتيش . بل انه هم في احدى اللحظات ان يأمر بقتل علي عويس ، لولا ان زينب، شقيقة هذا الاخير ، تدخلت في اللحظة الدراماتيكية لتصارح الشيخ محمود بالحقيقة المذهلة وهي ان علي عويس هو ابنه منها.

وبالفعل ، كان الشيخ محمود ، في فورة الشباب ، قد أقدم على افتضاض بكارة زينب . وحينما تبين انها حامل منه ، ابى الزواج منها وتنكر لها وأنكر كل صلة له بها . وقد وضعت زينب في السر ، وتداركا للفضيحة هجرت الحي لتعود اليه بعد فترة موهمة الناس بأن ابنها ان هو الا شقيقها من أمها .

من هي زينب ؟ من هي هذه التي تقوم بدور الام والاخت معا لعلي عويس ؟ ان المعلومات التي تقدمها عنها **حكاية بلا بداية ولا نهاية** قليلة ، ولكنها ذات دلالة . فهي «عانس ، مدرسة اطفال ، ذات دخل ضئيل» ، وقد «شقت طريقها بارادة من حديد» ،

واضطر الشيخ محمود نفسه الى الاعتراف لها في زمن لاحق بأنه «تابع نجاحها باعجاب» . ولكنها صدته بإباء ، مؤكدة له انها «عاجزة عن تصديقه» لان لديها «من الاسباب ما يحملها على اساءة الظن به دائما والى الابد» ، ولكنها «ما كانت لتتصور انه سيلاحقها بالاذى جيلا بعد جيل» ، وما كانت لتتصور انه سيؤذيها في ابنها بعد ان آذاها في شرفها !

وقد رد عليها الشيخ محمود بأن حملها مسؤولية كل ما يحدث في الحارة :

ــ انك وراء ذلك كله كالدمل الكامن وراء اورام خبيثة . ولا اشك في انه (علي عويس) ورث حقده الاعمى علي من حقدك الابدي .

ــ فليسامحك الله !

ــ ليس من حقك ان تلعبي دور الضحية البريئة ، لم تكوني ضحية قط ! لقد كان ما كان وانت في كامل اختيارك ، ولقد تصرفت كامراة مستهترة .. مستهترة ، اجل مستهترة ! مزقي ستار الادب الزائف ، واكشفي عن الحقد المخزون في اعماقك.. لقد حز في نفسك يوما ان ارفض الوقوع في فخ الزواج الذي نصبته لي ، حز في نفسك ان تنفردي بعارك كامراة عانس ، ولعلك توهمت انك تثأرين لنفسك بنشر الاكاذيب عن اعراض الشرفاء ..

وحينما تضطر زينب الى مصارحته بالحقيقة المذهلة والى انتزاع ما يشبه الوعد منه بألا يتعرض لابنها منه بالاذى ، تستودعه الله بهذه العبارة التصالحية :

ــ لقد رميتني بشتى التهم ؛ تصورت ان اي حقد تحداك انما يستمد من حقدي الابدي ، دعني اقول لك قبل الذهاب ، دعني اقول لك .. انك .. مخطىء !

ان تطبيق منهج القراءة المزدوجة هنا يعطي زينب بعدا ميتاواقعيا باعتبارها رمزا للحقيقة . فالحقيقة ، التي ابى الدين

ان يبني بها ، كتب لها ان تبقى «عانسا» الى ان وضعت في السر . وحين وضعت ، اضطرت الى ان تهاجر عن «الحي» . والطفل الذي انجبته هو العلم . فالعلم ابن الحقيقة ، والحقيقة ام العلم . ومشروع الزواج بالدين انما كان بمبادرة منها وباختيارها . والشيخ محمود يعبر عن ذلك بطريقته الخاصة حين يقول لزينب انها هي التي نصبت له فخ الزواج ، وان ما كان قد كان وهي في كامل اختيارها . و«المستهترة» صفة للحقيقة اكثر منها صفة لامراة . فالحقيقة هي المراة الوحيدة التي لا يخجلها «عريها» ، والتي لا مرمى لها في الحياة غير ان تمزق «ستار الادب الزائف» . ومع ان بعضهم يصورها في بعض الاحيان بصورة «الضحية البريئة» ، فانها في الحقيقة «لم تكن ضحية قط» ، لانه لا مفر في النهاية من ان يكتب الظفر لها . والحقيقة ، مهما اضطهدت ، «تشق طريقها بارادة من حديد». وهي في مسارها الى النور لا تبالي بما يسقط من ضحايا في سبيلها ، ولا بما ينشأ عن مسيرتها من فواجع ومآسي وانقلابات في الاوضاع القائمة . هي اذن مصدر دائم لـ «القلاقل» . ولأن حبها مبثوث في قلوب البشر ، فقد هوت على مر التاريخ عروش كثيرة للكذب والخرافة والامتيازات . هي عامل تثوير دائم ، والشبح الذي يقض مضاجع الطغاة . وبلغة الطغاة يخاطب الشيخ محمود زينب ــ الحقيقة قائلا : «انك وراء ذلك كله كالدمل الكامن وراء أورام خبيثة !» . ولأن الدين ابى الزواج من الحقيقة في حقبة من حقب تطوره ــ في العصور الوسطى على سبيل المثال ــ فقد توهم ان طلاقه عنها ابدي ، وأن «حقدها عليه ابدي» ، ولهذا حاول ان «يلاحقها بالاذى جيلا بعد جيل». وهنا ايضا يمكن ان تضرب العصور الوسطى المتوجة بمحاكم التفتيش مثالا على تلك المطاردة الجيلية . ولكن على الرغم من ان للحقيقة ، بحكم اضطهاد الدين هذا لها ، «من الاسباب ما

يحملها على اساءة الظن به دائما» ، فانها في موقفها منه لا تصدر عن رد فعل او عن حقد ، وكم بالاحرى عن «حقد أبدي» . ولا غرو ان تكون كلمة زينب الاخيرة للشيخ محمود هي انه يخطىء اذ يرميها بهذه التهمة . فليس الحقد من شيم الحقيقة ولا من عناصرها ولا من وسائلها . الحقيقة حب . دعوة دائمة للالتزام بها ، للزواج منها . ولئن يكن الشيخ محمود قد تقدم في السن الى حد يحول بينه وبين الزواج ، فما عليه والحالة هذه الا ان يكفر عما تقدم من ذنوبه وما تأخر بحق زينب بصونه حياة ابنها منه وباعترافه بأبوته له .

العلم في نظر نجيب محفوظ متحدر من صلب الدين . ولو كان الشيخ محمود نفذ وعيده بقتل علي عويس ، لكان ارتكب افظع جريمة يمكن لأب ان يرتكبها : قتل ابنه . ولكن لو كان علي عويس قتل الشيخ محمود (وكان قد همّ بأن يفعل انتقاما لشرف أخته ــ الحقيقة) ، لكان ارتكب ايضا افظع جريمة يمكن ان يرتكبها ابن : قتل ابيه . وفي كلتا المرتين ، كان تدخّل زينب ضروريا لوقف مشروع القتل : فما ينبغي ان يجمع بين الدين والعلم ليس العداء الى حد القتل ، وانما التضامن الى حد الاعتراف المتبادل بالأبوة والبنوة .

الحقيقة اذن ان العلم ابن الدين . ولكنه ايضا ، وفي نظر نجيب محفوظ ، ابن زنا . ولكن ، وكما في كل زنا ، ليس على الابن تقع التبعة ، ولا حتى على الأم . انما الزاني الوحيد هو الاب . ولقد كان في وسع الشيخ محمود ان «يشهر زواجه ولو متأخرا . ولطالما حذره والده بالذات ــ وقد كان من الاتقياء البررة ممن يترحم الشيخ تغلب الصناديقي على ايامهم ويقر لهم ب «الامامة» ــ قائلا له : «تزوج وابدأ الطريق ، وإلا فاتك قطار الرحمة الى الابد !» . لكن الشيخ محمود ابى ان «يتزوج» . تنكب عن «الطريق» ، ركب مركب «الكبرياء والغرور» ، عاش «عيشة استهتار ولذة ومغامرات ليلية» ،

وكانت حياته نموذجا لحياة «شيخ طريقة بلا طريقة» . وها قد جاء يوم الحساب والحقيقة ؛ والحساب عسير والحقيقة مرة .
فماذا ينبغي ان يفعل ؟

وبادىء ذي بدء ، ماذا ينبغي **ألا** يفعل ؟ ففي زمن الحقائق المتفجرة ، الحقائق التي «تنقض كالقنابل» ، و«الاركان التي تتهاوى» ، و«الاوهام التي تتبخر» ، و«العناصر التي تتحلل مطالبة بتركيب جديد» ، في زمن الزلزال هذا يتراءا اكثر من اغراء بسلوك الطريق الاسهل ، طريق الهرب الانهزامي . وحين يصارح الشيخ محمود برغبته هذه الشيخ تغلب الصناديقي ، يصاب هذا الاخير ــ وهو الناطق في القصة بلسان نجيب محفوظ ــ بهلع حقيقي .

قال الشيخ محمود :

ــ يخيل الي انه لم يعد لي مقام هاهنا !

هتف العجوز بجزع :

ــ مولاي !

ــ لعل ذلك يحل الازمة المستعصية ...

ــ لكن الازمة لا تحل بالهرب ..

ــ عاصفة تجتاح راسي ، أحداث تطاردني فلا تدع لي فرصة لإنعام النظر . من أسفل يلح نداء ومن اعلى يلح نداء ، وأنا ممزق القلب ، كأني مطالب بتنظيم الوجود وأنا محاصر في ركن ضيق يهددني الموت !

ــ لا حل الا أن تخوض أمواج الظلمات وأن تشق طريقك الى بر النور !

لكن هل يمكن لـ «الغارق في الوحل» أن «يحلم بالطيران» ؟ نعم ، اذا اختار طريق «القداسة» . واذا كان ثمة من معجزة حقيقية قد اجترحها القطب الاكرم فهي «انه رغم خطاياه قد بلغ المراد باجتهاده» . وما على الحفيد الا ان يقتدي بمثال الجد

«الذي اورثنا مثلا لا يجوز ان ينسى وهو يتحول من الجريمة الى الولاية » .

ولئن يكن العلم قد أسقط ، بما فجره من حقائق ، الكثير من الاوهام التي كان الدين احاط نفسه بها بصدد «بيـــوت الاكرمية» و«انساب رجالها» و«سلوك اهلها» ، فان الشيخ تغلب الصناديقي نفسه يؤكد انه «ثمة جوهر حقيقي باقٍ تحت ركام من أوهام لا قيمة لها» . وهذا الجوهر هو ما تحتاجه **الحارة من** الدين ، ولا يجوز بحال من الاحوال ان يختلط مع «النفايـــات السامة التي يجب التخلص منها بأسرع ما يمكن» .

يلخص الشيخ تغلب الصناديقي الموقف على النحو التالي :

ـ نحن في حاجة اليهم كما انهم في حاجة الينا ..

فالدين بحاجة الى العلم حتى يحـرر نفسه من «ركـــام الاوهام» التي تحجب «جوهره الحقيقي» ، والعلم بحاجة الـــى الدين حتى يمتلك «الحكمة» التي بدونها قد يضع قدراته فـــي خدمة الدمار .

يقول الشيخ تغلب الصناديقي لعلي عويس :

ـ انت شاب ممتاز ، واذا طعمت عملك بالحكمة فأنت خير حفيد للاكرم !

ان نجيب محفوظ يقر للعلم بنفوق ساحق . ففي المعركـة التي نشبت بين علي عويس والشيخ محمود ـ وهي معركـــة دارت بالكلمات اكثر منها باللكمات ـ كاد الاول بقوة فتوتـــه وشبابه وحدها ان يفتك بالشيخ محمود ، بينما اضطر هـــذا الاخير ـ وهو شيخ فعلا لان شبابه صار وراءه ـ الى الاستنجاد بالشيخ عمار والخدم وبعض رجال الحارة ، وبالتالي بسلطـان الدولة والتقاليد، كيما يفك عن خناقه حصار الفتى الذي أشعره بـ «دنو الانهيار والنهاية» .

ومن المؤكد ان نجيب محفوظ يحمّل الدين الملامة الكبرى لانه هو الذي كان البادىء ـ في التاريـــخ كما في القصة ـ

باستخدام العنف ضد العلم ، ولكنه يوجه قدرا من اللوم ايضا الى هذا الاخير لانه «عار على علي عويس ان يستغل قوته في الاعتداء على رجل في مثل سن الشيخ محمود» .

ولئن يكن الدين هو الذي اخذ مبادرة العنف ضد العلم ، فانه هو الذي سيأخذ ايضا ــ ربما على سبيل التكفير ــ مبادرة المصالحة .

ــ اني ابوك وانك ابني !

هذا ما يقوله الشيخ محمود لعلي عويس بعد ان همّ كل منهما بقتل الآخر . ولكن السؤال هو : هل يقبل علي عويس بأن يقول للشيخ محمود : نعم ، انك ابي واني ابنك ؟ اي هل يستتبع الاعتراف بالأبوة من قبل الدين اعتراف بالبنوة من قبل العلم ؟

الحق ان نجيب محفوظ لا يترك لبطله علي عويس حرية الاختيار . فما دام ابن زنا ، فان أقصى مطامحه ان يسترد اسمه . واذا ابى ان يتعرف في الشيخ محمود أباه ، فانه يكون قد تنكر ايضا لأمومة زينب له . وفي هذه الحال لا يبقى ابنا للحقيقة ، كما انه يفقد ضمانة الحكمة ، ولا يعود مرشحا لان يكون «خير حفيد للاكرم» .

ولأن العلم ضرورة للحارة ، ولأن الحكمة ضرورة للعلم ، فان علاقة الزنا التي جمعت ذات ليلة بين الثلاثي الشيخ محمود ــ زينب ــ علي عويس ، لا بد ان تأخذ صفة التكريس الشرعي باسترداد علي عويس اسمه الحقيقي : علي الاكرم . ولسوف يتحمل الشيخ محمود قسطه من التفكير باعادته الثروة التي اكتنزها الى اصحابها الحقيقيين من المريدين وأهل الحارة . كما سيتحمل علي عويس بدوره قسطا آخر ، يدفعه من كرامته وسمعته حين سيعلم اهل الحارة قاطبة انه ما كان ، على عصاميته وطموحه وعلو همته ، الا ابن زنا . ولكن اي غضاضة في ذلك ، في خاتمة المطاف ، ما دام القطب الاعظم نفسه

ـ آدم ـ قد أورث ذريته مثلا لا يجـــوز لها أن تنساه حين استطاع باجتهاده وجهاده ان يتحول من الجريمة الى الولاية ؟

هذا على الاقل على صعيد ما ينبغـــي ان يكون . ونجيب محفوظ لم يكن في **حكاية بلا بداية ولا نهاية** مجرد مؤرخ ، بـل كان ايضا صاحب رؤيا . وهو لا يعيد قراءة تاريخ البشرية الا لكي يتصور مستقبلها . ومن هنا كان تنقله الدائم من صعيد ما هو كائن الى صعيد ما ينبغي ان يكون ، من ارض الواقع الـــى سماء اليوتوبيا . واليوتوبيا قد تتحول الى واقع ذات يوم ، وقد لا تتحول على الاطلاق . وقد يكون بيننا ـ ولا بد ان يكون ـ من لا يوافق نجيب محفوظ في تصوره لما كان ولما يجب ان يكون ، ولكن المقدمات التي شاد عليها استنتاجاته لا يمكن الا ان تقابل بالترحاب حتى من قبل من يعترض على الاستنتاجات . فهذه المقدمات هي في **حكاية بلا بداية ولا نهاية** كما في **اولاد حارتنا** وكما في **ثرثرة فوق النيل** وفي **الشحاذ** وفـي **الطريق** مقدمات المذهب الانساني الذي لا يستطيع احـــد ان يماري في دوره الديموقراطي التقدمي في مجتمع شرقي ، غيبي ، اتكالي ، لـم يعرف ثورة ديموقراطية جذرية تضع الانسان في مركز الكون والوجود وحركة التاريخ .

وأيا يكن موقفنا من الميتافيزيقا ومن لغتهـــا ومشكلاتها ، فليس بقليل ان يؤكد في مجتمع كمجتمعنا كاتب له شعبيـــة نجيب محفوظ وتأثيره ان الانسان هو المعجزة لانه يحلم بالطيران وهو غارق في الوحل : الطيران بأجنحة الدين بالامس ، وبأجنحة العلم اليوم ، وربما بأجنحة الاثنين غدا كما يحلم اكبر روائـــي عربي معاصر .

فهرست

١٠٩٥ / ٣٠٠٠

هذا الكتاب

« بصراحة أعترف لك بصدق بصيرتك ، وقوة استدلالك ، ولك ان تنشرعني بأن تفسيرك للاعمال التي عرضتها هو أصدق التفاسير بالنسبة لمؤلفها » .

نجيب محفوظ

« من رسالة الى المؤلف »

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت